شعراء الصوفية المجهولون

تأليف

د. يوسف زيدان

طبعة ثانية مزيدة ومنقحة

دار الجيل

بيروت

شعراء الصوفية المجهولون

تأليف

د. يوسف زيدان

دار الجيل
بيروت

طبعة ثانية مزيدة ومنقّحة
١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

الإهـــداء

إلى التجلي الآخر لجوهر الذات
الصديـق الدكتـور
رمضـان بسطاويسـي . .

يوسف زيدان

مقدمة

التصوف، هو أعمق التجارب الدينية وأكثرها انطلاقاً في العالم اللانهائي الممتد من عالم المحسوسات إلى فضاء الحضرة الإلّهية. والتعبير عن التجربة الصوفية أمرٌ عسير، فاللّغة التي يتداولها الناس، لا تفي بتصوير *الأحوال والمقامات التي يمرُّ بها الصوفي، في عروجه إلى الله.. من هنا،* لجأ الصوفية للتعبير الشعري، استفادةً بما يحمله الشعر من طاقةٍ إيحائية وثوبٍ فَضْفَاضٍ يتسع بعض الشيء لمعاني التصوف الهائلة. ومن هنا، اعتقدتُ دوماً أن التصوف يُدرك على نحوٍ أفضل، من خلال شعر المتصوفة؛ الذي هو أنسب طرائق التعبير اللغوي عند القوم.

والملاحظ، أنه عند ذكر الشعر الصوفي، لا يتبادر إلى الأذهان إلا ابنُ الفارض.. وأحياناً، الحلاَّج وابن عربي! وذلك يعكس ظلمنا للعديد من شعراء الصوفية الذين لا تقل مكانتهم عن هؤلاء المشهورين. ولذا، جاءت فكرة هذا الكتاب، كمحاولة للتعريف بأولئك المجهولين من شعراء الصوفية.

ولما سبق، فهذا الكتاب لن يتناول شعراء الصوفية الذين نالت أشعارهم شهرةً، وطُبعت دواوينهم ـ محققةً أو غير محققة ـ وهؤلاء هم: الحلاَّج، الشِّبْلي، الجيلاني، ابن الفارض، ابن عربي، التلمساني،

النـابلسي. . فقد رأينـا أن دواوينهم المنشورة تكفي لمعـرفتهم، وتؤكد شهـرة أشعارهم.

وفي الـطبعة الأولى من هـذا الكتـاب، تـوقفنـا عنـد عشـرة من شعـراء الصوفية المجهولين. ثم أضفنا في هذه الطبعة أربع شخصيات (السهروردي ـ أبو مدين ـ ابن زُقَّـاعة ـ أبـو الوفـا الشرقـاوي) وجعلنا هـذه الطبعـة المزيـدة، منقَّحةً مما ورد في الطبعة الأولى، ومزوَّدةً بذكر البحور الشعرية، ومضافاً إليها المزيد من التعليقات.

. . وإذا كان الشعر الصوفي من شأنـه أن يفتح بـاباً للدخـول إلى عالمٍ مشحونٍ بالرؤى الرائقة المفعمة بـالدلالات، فـإنه ـ من جهـة أخرى ـ يمتلىء بمـا لا حصر لـه من الـرمـوز والمصـطلحـات الصـوفيـة التي لا يتعـرَّف على مدلولها، إلا مَنْ كَانت له معرفةٌ بهذا اللون من الأدب. ولـذلك، حـاولنا قـدر الـطاقة أن نشيـر إلى دلالة الـرموز التي تـرد في الأبيـات، سـواءً في معـرض تقـديمنا لهـا، أو في تلك التعـريفـات المـوجـزة التي وضعنـاهـا في هـوامش الصفحـات. . دون الإكثار، حتى نتـرك مساحـة للقارىء، يتَّجـه فيها بـذوقـه الخاص نحو دلالة الأبيات.

وبعد. . فإنني أرجـو أن يسهم هذا العمـل المتواضـع، في دفع القـرَّاء والمثقفين نحو هذا اللون المهجور من تراثنـا الأدبي والروحي، بـدلاً من تلك الأنماط الأدبية التي استهلكت بمرور الأيام، وبمرور الأضواء البـاهرة عليهـا. وإنني على ثقةٍ من أن التعرُّف على شعر الصوفية وآدابهم، سوف يفتح للأدب العربي المعاصر، آفاقاً جديدة. .

والله الموفق.

دكتور/ يوسف زيدان

سَمْـنُون المُحـب

(المتوفى ٢٩٧ هجرية)

فَإِنْ شِئْتَ وَاصِلْنِي وَإِنْ شِئْتَ لَا تَصِلْ فَلَسْتُ أَرَىٰ قَلْبِي لِغَيْرِكَ يَصْلُحُ
[الطويل]

المحبـة عند الصـوفية طـريقٌ للوصول إلى الله تعـالى، وقـد وردت في الكتاب العزيز آياتٌ كثيرة عن محبة الله لعباده ومحبة العبد لربّه.. وكان لا بد للصوفية من التوقف أمام المحبة وتعميق أغوارها، فوصلوا إلى منتهى المنتهى فيها. لكن واحداً بعينه من الصوفية، هو الذي تخصَّص في المحبة، واختص باسم المُحب.. هذا الواحد هو «سَمْنُون».

تقول المصادر الصـوفية إنـه: أبو الحسن سَمْنُـون بن حمزة الخـواص، كـان معاصـروه يلقبونـه (سمنون المحب) أمـا هو فكـان يلقِّب نفسه (سمنـون الكـذاب) ولهذين اللقبين حكـاية.. فقـد كان سمنـون ينسج غـزلياتـه وينظم محبته لله، فقال بلسان العاشق: **[مخلَّع البسيط]**

وليس لي في سواك حظٌّ فكيفما شئتَ فامتحنّي
إن كان يرجو سواك قلبي لا نلتُ سُؤْلي ولا التمنّي

وعندما أنشد هذين البيتين، ابتلاه الله باحتباس البول. فصـار يتلوى من الألم.. وظـل يدور على الصبيـان في الكتـاتيب ويقـول لهم: ادعـوا لعمكم الكذاب! تلك هي الحكاية كما يرويها المؤرخون. لكن القشيري في رسـالته يرويها على نحو آخر، فيذكر أن سمنون لما ابتلي باحتباس البـول كان سـاكناً

ولـم يجـزع، فـرأى مَنْ حـولـه يقـولـون: سمعنـا سمنـون يتضـرع إلـى الله ويسـألـه الشفاء. ولـم يكن هو قـد فعل، فعـرف أن ما سمعـه الناس هـو إشارة من الله إليه، كي يُظهر الجزع ويتأدب بآداب العبودية ويستر حاله وصبره. فـظل يدور على الصبيان في الكتاتيب قائلاً: (ادعوا لعمكم الكذاب) تلبيـةً لهذه الإشـارة الإلٓهيـة.. ولا شك في أن حكـاية القشيـري أكثر تقـديـراً لشخص سمنـون، لكنها أيضاً أكثر افتعالاً وتصنعاً!

عـاش سمنون ببغـداد أيام كـانت تموج بـالنقيضين، البذخ والتـرف من جهة، ومن الجهة الأخرى الزهد والتقشف. وكانت بغداد آنذاك عامرة بـرجال التصـوف من أمثال الحـلاج والشبلي والجنيد والسَّـريّ السَّقَـطي وأبي أحمـد القلانسي. وقد صحب سمنـون كلٌ من السقـطي والقلانسي ومحمـد بن علي القَصَّاب، وكانـوا جميعاً من جلة مشـايخ بغـداد وأكابـر صوفيتهـا. لكن أقوال وأحوال سمنون في المحبة، جعلته يختص من دونهم بلقب المحب.

ويروي المؤرخون العديد من وقائع زهد سمنون وتبتله وإقـامته فـرائض الدين ونوافله، وأيضـاً كرامـاته. فعن تعبـداته يـروي السلمي والقشيري وأبـو نعيم، أن سمنـون المحب كان يجلس مـع أبي أحمد القـلانسي، وإذا بأحـد الأغنياء يوزِّع على الفقراء أربعين ألف درهم. فقال سمنون للقلانسي: «هـذا الرجل أنفق، ونحن لا نملك مـا ننفقه تقـرباً إلى الله، فـامض بنا إلى مـوضع نصلي فيـه بكل درهم أنفقـه الرجـل ركعة..». فـذهبـا إلى المـدائن وصليـا أربعين ألف ركعـة! ولهـذه الـواقعـة مغــزى ودلالات يضيق المقـام هنــا عن استعراضها.

أما عن كرامـاته، فيـروي الهجويـري في كتابـه (كشـف المحجوب) أن سمنـون كان عـائداً من الحـج، فتوقف بمـدينة «فيـد»، فطلب أهلهـا منـه أن يحدثهم. ولما اعتلى سمنـون المنبر، وجـد نفسه يتحـدث والناس يتشـاغلون

فيما بينهم فلا يستمع إليه أحد، فالتفت سمنون إلى قناديل المسجد وقال: «إني أتحدَّث إليك». . فاصطكت القناديل وتحطمت كلها!.

ومع أن مكانة سمنون المحب كانت معروفة لدى معاصريه، إلا أنه ابتلي برجلٍ كان يحط من شأنه دائماً عند الخليفة، وكان ذلك الرجل هو (غلام الخليل) المشهور آنذاك بالرياء والتقرب إلى السلاطين والتشهير بالصوفية لدى الحكام. ويقول الهجويري:

«ولما كبر جاه سمنون في بغداد، وتقرَّب إليه كل شخص، تألم (غلام الخليل) من ذلك، وأخذ في اختلاق الأوضاع، حتى وقعت عين امرئ على جمال سمنون، وعرضت المرأة نفسها عليه، فأبى. وذهبت المرأة إلى الجنيد قائلة: قل لسمنونٍ أن يتزوجني! فغضب منها الجنيد وزجرها. فذهبت إلى (غلام الخليل) واتهمت سمنون بتهمة مما تتهم النساءُ به الرجال، واستمع (غلام الخليل) إليها كما يسمع الأعداء، وأخذ في الطعن على سمنون، وغيَّر عليه الخليفة حتى أمر بقتله، فلما أحضروا السياف، واسْتُؤْذِنَ الخليفة، انعقد لسانه حين إصدار الأمر! ولما جن الليل، نام الخليفة فرأى في النوم من يقول له: «إن زوال روح سمنون رهين بزوال مُلكك! وفي اليوم التالي اعتذر لسمنون وردَّه مكرماً. .». وقد وردت هذه الحكاية باختلاف طفيف، في كتاب آخر، هو (اللُّمع في التصوف) للسَّرَّاج الطوسي.

ومعظم أشعار سمنون ترانيمُ عشقٍ قصار، فلا نجد في شعره قصيدة مطولة، وإنما هي متفرقات لا تزيد الواحدة على أربعة أبيات. وهذه الخاصية لا نجدها فقط عند سمنون، بل كانت سمة عامة للشعر الصوفي آنذاك، ولم تُعرف القصائد الصوفية الطوال، إلا فيما بعد القرن الخامس الهجري.

ويكاد شعر سمنون أن يكون وقفاً على المحبة وحدها، فهو في الغالب لا يتطرق بأشعاره إلى الموضوعات الصوفية الأخرى، وكأنه وجد صلةً وتناسباً

بين الشعر والمحبة، فاستخدمه للتعبير عنها. . ومن المصادر والمراجع المختلفة، جمعنا شعر سمنون، فكانت هذه الحصيلة التي نقدمها هنا للمرة الأولى مجتمعة، يقول سمنون: [الطويل]

بكيتُ ودمع العين للنفس راحةٌ ... ولكنَّ دمعَ الشوقِ يُنكى به القلبُ
وذكري لما ألقاه ليس بنافعي ... ولكنه شيءٌ يهيجُ به الكربُ
فلو قيل ما أنت؟ لقلتُ معذَّبٌ ... بنار مواجيدٍ يُضرِّمها العَتْبُ
بليتُ بمَنْ لا أستطيع عتابه ... ويعتبُني حتى يُقال ليَ الذنبُ

ويقول: [البسيط]

أفديكَ بل قَلَّ أن يفديكَ ذو دنفٍ ... هل في المذلَّة للمشتاق من عارِ
بي منك شوقٌ لو انَّ الصخر يحمله ... تفطَّر الصخرُ عن مُسْتَوْقَدِ النارِ
قد دبَّ حبُّك في الأعضاء من جسدي ... دبيب لفظيَ من رُوحي وإضْماري
ولا تنفَّست إلا كنتَ مع نفسي ... وكل جارحةٍ من خاطري جاري

ويقول: [الكامل]

ضَاعِفْ عليَّ بجهدك البلوى ... وابلغْ بجهدك غاية الشكوى
واجْهَدْ وبالِغْ في مهاجرتي ... واجهرْ بها في السرِّ والنجوى
فإذا بلغتَ الجهدَ فيَّ فَلَمْ ... تتركْ لنفسك غايةً قصوى
فانظرْ فهلْ حالٌ بيَ انتقلت ... عما تُحبّ بحالةٍ أخرى

ويقول: [الطويل]

وكان قلبي خالياً قبل حبكم ... وكان بذكر الخلق يلهو ويمزَحُ
فلما دعا قلبي هواك أجابه ... فلستُ أراه عن فِنائك يبرحُ
رُميت ببينٍ منك إن كنتُ كاذباً ... إذا كنتُ في الدنيا بغيرك أفرحُ

وإن كـان شيءٌ في البـلاد بـأسـرهـا ... إذا غِبت عن عيـني بـعيـني يـلمـحُ
فإن شئتَ واصلني وإن شئت لا تصلْ ... فـلستُ أرى قـلبي لـغيــرك يـصلحُ

ويقــول: [الطويل]

تجـرَّعتُ من حــالَيْــهِ نُعْمَى وأَبْؤُسـا ... زمــانٌ إذا أمضى عَــزَالَيْــهِ أُخْتسى
فكم غمــرة قـد جــرَّعتني كؤوسهـا ... فجـرَّعْتُهـا من بحـر صبـري أكؤُسـا
تـدرَّعتُ صبـري والتحفت صـروفـه ... وقلتُ لنفسي الصبر أو فاهلكي أسى
خـطوبٌ لو ان الشُّمَّ زاحمن خـطبها ... لساختْ ولم تدركْ لها الكفُّ ملمسا

ومن أشعاره التي لا تزيد عن بيتين، قوله: [الخفيف]

أنــا راضٍ بــطول صــدِّك عنِّي ... لـيس إلَّا لأن ذاكَ هــواكــا
فـامتحنْ بـالجفــاء صبـري على ... الــودِّ ودعني معلَّقـاً بِــرَجَـاكــا

وقـولـه: [البسيط]

شغلتَ قلبِي عَنِ الـدُّنيـا ولـذَّتهـا ... فـأنتَ والقلبُ شيءٌ غيـر مفتـرقِ
ومـا تـطابقتِ الأحـداقُ من سِنَـةٍ ... إلَّا وجدتكَ بين الجفن والحـدقِ

وقـولـه: [الطويل]

ولــو قيـل طــأْ في النـار أعلمُ أنَّــه ... رِضىً لـكَ أو مُدْنٍ لنـا من وصالِكـا
لقــدَّمتُ رِجلي نحـوهــا فـوطئتُهـا ... سـروراً لأنِّي قـد خـطرتُ ببـالِكـا

وقـولـه: [الطويل]

أحنُّ بــأطـراف النهــار صبـابــةً ... وبـالليل يـدعوني الهـوى فأجيبُ

وأيّـامُنـا تفنى وشـوقي زائـدٌ   كـأنَّ زمـان الشـوقِ ليس يغيبُ

وقـولـه: [الوافر]

يعـاتبُني فـينبسط انقبـاضـي   وتسكن روعتي عنـد العتـابِ
جـرى فيَّ الهوى مُـذْ كنتُ طفلا   فمـا لي قد كبـرتُ على التصابي

وقـولـه: [الكامل]

أمسى بخـدِّيَ للدمـوع رسـومُ   أسفـاً عليـك وفي الفـؤاد كُلُومُ
والصبر يحسُنُ في المواطن كلها   إلاَّ عـليـكَ فـإنَّـه مَـذْمُـومُ

وقـولـه: [البسيط]

أنتَ الحبيبُ الذي لا شكَّ في خلَدي   منـه، فإن فقـدتـكَ النفسُ لم تعشِ
يـا مُعـطشي بـوصـالٍ أنتَ واهبُـهُ   هل فيك لِي راحةٌ إن صِحْتُ: واعطشي

ومن أبياته المفردة: [المتقارب]

تـركتُ الفؤادَ عليـلاً يُعـادُ   وشـرَّدتُ نـومِي فمـا لِي رقـادُ

ومـنـها: [الكامل]

هَبْنِي وجـدتُكَ بـالعلوم ووَجْدِهـا   مَنْ ذا يَجِـدْكَ بـلا وجـود يـظهـرُ

ومـنـها: [الطويل]

ولا خير في شكوى إلى غير مُشتكي   ولا بـد من سلوى إذا لم يكن صبـرُ

وأخيراً. فلنختم وقفتنا مع محبة سمنـون، بخبرٍ عن قـدر احتراقـه بنار الحب. قال السلمي، قال أبو الطيب العكي: ذُكر لي أن سمنون كان جالسـاً

على شاطىء دجلة، وبيده قضيب يضرب به فخذه، حتى بان عظم فخذه وساقه وتبدَّد لحمه، وهو يقول: [المديد]

كان لِي قلبٌ أعيش بِهِ ضاع منِّي في تقلُّبِهِ
ربِّ فارْدُدْه عليَّ فَقَدْ ضاق صدري في تطلُّبِهِ
وأغِثْ ما دامَ بيَ رمقٌ يا غَيَاثَ المستغيث بِهِ

* * *

بخصوص سمنون المحب ومتفرقاته الشعرية، تُراجع:

حلية الأولياء لأبي نعيم ـ طبقات الصوفية للسُّلَمي ـ الرسالة للقُشيري ـ تاريخ بغداد لابن الخطيب ـ كشف المحجوب للهجويري ـ اللمع في التصوف للسَّرَّاج ـ التعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذي ـ صفة الصفوة لابن الجوزي ـ الشعر الصوفي للعوادي.

أبو عليّ الرُّوذَبارِي

(المتوفى ٣٢٢ هجرية)

التصوفُ مذهبٌ كله جِدٌّ، فلا تَخْلطوه بشيءٍ من الهَزْلِ..

حين يتحدث المؤرخون عن الروذباري، نجدهم يستهلون الحديث عنه بوصفه بصفات مثل: شيخ الصوفية ـ الزاهد المشهور ـ أظرف المشايخ وأعلمهم بالطريقة ـ اللسان الفصيح والبيان النجيح ـ الشيخ المحمود ومعدن الجود.. وكلها أوصاف مشوقات للاقتراب من هذا الرجل والتعرف عليه عن كثب.

هو أبو علي أحمد بن محمد بن القاسم بن منصور بن شهريار بن مهرذادار بن فرغدد بن كسرى.. وهو كما نرى من سلالة أمراء فارس وملوكهم، لكنه ترك الإمارة وسار في طريق الزهد والتصوف، مؤثراً الدين تاركاً الدنيا. ويُنسب الشيخ إلى روذبار، التي يقول عنها ياقوت الحموي في (معجم البلدان):

«رُوذَبار عدة مواضع، وكأن معناها بالفارسية (موضع النهر) قال أبو موسى الحافظ الأصبهاني: هي ناحية من طسوج أصبهان، تشتمل على قرى كثيرة، فيها جماعة كثيرة من أهل العلم.. وروذبار أيضاً قرية من قرى بغداد. وقال السمعاني: الروذبار لفظة لمواضع عند الأنهار الكبيرة في بلاد متفرقة، منها موضع على باب الطابران بطوس، يُنسب إليه أبو علي محمد بن

أحمد بن القاسم الروذباري الصوفي، سكن مصر وله تصانيف حسان في التصوف، وكان من أولاد الرؤساء والوزراء، صحب الجنيد وكان فقيهاً محدثاً نحوياً، وله شعر حسن رقيق، مات سنة ٣٢٣[١]. وقد نسبه السمعاني إلى روذبار طوس، وأبو موسى إلى روذبار بغداد، والأول أصح».

ونزل أبو علي من بلدته الفارسية إلى بغداد، وهناك تلقى علوم الفقه واللغة والأدب، وتخصَّص في علم الحديث النبوي فحصل فيه على معرفة واسعة بالروايات وأحكامها، حتى روي عنه أنه كان يفتي بالحديث.. أي يورد لكل قضية تعرض عليه، حديثاً نبوياً يستند إليه في فتواه. ثم دخل الشيخ غمار التصوف، فتلقى تربية روحية على يد أبي القاسم الجنيد (شيخ الطائفة) وصحبه مدة تعرَّف خلالها على دقائق المفاهيم الصوفية، وحقائق الرحلة الروحية إلى الله، وقد أشار الروذباري إلى أساتذته في المرحلة البغدادية من حياته فقال: أستاذي في التصوف الجنيد، وفي الفقه ابن سُرَيج، وفي الأدب ثعلب، وفي الحديث النبوي إبراهيم الحربي.

وبدأ الروذباري سياحاته الصوفية في أرض الله، فزار العديد من البلدان، واستقر أخيراً في مصر، وحدَّث بها وألَّف، وصار واحداً من أئمة التصوف المشهورين. والمؤرخون يذكرون أنه وضع مجموعة من المؤلفات الصوفية، والكلاباذي يذكره ضمن الذين نشروا علوم التصوف كتباً ورسائل.. لكنه لا توجد اليوم أية مؤلفات معروفة ـ سواء مطبوعة أو مخطوطة ـ للروذباري.

لكننا نستطيع التعرف على الإطار العام لفكر الروذباري وتصوفه، من خلال تلك المواقف والعبارات التي حفظتها لنا كتب الطبقات. وأول ما يلفت

(١) أجمعت المصادر التاريخية على أن وفاة الروذباري كانت سنة ٣٢٢، ويبدو ما أورده ياقوت هنا، وكأنه سهو أو خطأ غير متعمد.

النظر في آثار الروذباري، ذلك التمسك الشديد بظاهر الشريعة الإسلامية، وموقفه المتشدد من أولئك الأدعياء الذين اتخذوا التصوف ذريعة للتحلل من قواعد الشرع. فقد روي أن معاصريه سألوه عن حكم رجل كان يستمع إلى الملاهي، ويقول: إن ذلك لا يؤثر فيه لأنه وصل.. قال الروذباري: نعم وصل، ولكن وصوله إلى سقر!

وكان الروذباري يدعو معاصريه للتوبة إلى الله والرجوع إليه، وهي دعوة كان عصر الروذباري في حاجة ماسة إليها، بعد انتشار مظاهر الغفلة والبذخ الشديد. يقول الروذباري: من الاغترار أن تُسيء فيُحسن إليك، فتترك الإنابة والتوبة، توهماً أنك تسامح في الهفوات، وترى أن ذلك من بسط الحق لك.. كما كان يدعو للمفاهيم الصوفية قائلاً: إن المشتاقين إلى الله يجدون حلاوة الوقت عند وروده، لما كُشف لهم من رَوْح الوصول إلى قربه، أحلى من الشهد. ويقول: لا رضا لمن لا يصبر، ولا كمال لمن لا يشكر. ويقول: من رُزق ثلاثة أشياء فقد سلم من الآفات: بطن جائع معه قلبٌ خاشع، وفقر دائم معه زهدٌ حاضر، وصبر كامل معه قناعةٌ دائمة.. ويقول أخيراً: في اكتساب الدنيا مذلة النفوس، وفي اكتساب الآخرة عزُّها؛ فيا عجباً لمن يختار المذلة في طلب ما يفنى، على العزِّ في طلب ما يبقى.

وللروذباري وقفات ذوقية في تفسير القرآن، يسكب فيها على النص القرآني رحيق الذوق الصوفي ـ فنراه في بعض تفسيراته الصوفية يقول:

«تَشَوَّقَت القُلُوبُ إلَى مُشَاهَدَةِ ذات الحقِّ، فَأُلْقِيَتْ إليها الأَسَامِي، فَرَكَنَتْ إليها، والذاتُ مستترةٌ إلى أوان التجلي، فذلك قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾[1] فوقفوا معها عن إدراك الحقائق، فأظهر الأسامي وأبْدَاها للخلق لتسكين شوقِ المحبِّين له، وتأْنيسِ قُلُوبِ العَارِفِينَ بِهِ».

(١) سورة الأعراف (الآية: ١٨٠).

وكان الروذباري من أوائل الصوفية الذين وضعوا تعريفاً للمصطلحات الصوفية، على نحو ما سنراه بعده بزمن طويل عند ابن عربي والقاشاني وغيرهما، ممن خصصوا مؤلفات مستقلة في شرح المصطلح الصوفي. ولما كانت مؤلفات الروذباري مفقودة، فسوف نحاول تقديم صورة لتلك التعريفات التي وضعها المؤرخون ضمن ترجمته، فمن ذلك:

ـ **التصوف**: مذهب كله جد، فلا تخلطوه بشيء من الهزل.

ـ **الصوفي**: مَنْ لبس الصوف[1] على الصفاء، وأطعم الهوى ذوقَ الجفاء؛ وكانت الدنيا منه على القفا، وسلك منهاج المصطفى.

ـ **المريد**: الذي لا يريد لنفسه إلا ما أراده الحق له.

ـ **المراد**: الذي لا يريد من الكونين[2] شيئاً غير الله.

ـ **الإشارة**: هي الإبانة عما يتضمنه الوجد من المُشار إليه[3]؛ وفي الحقيقة، فالإشارة تصحبها العلل[4]، والعلل بعيدة عن عين الحقائق..

ـ **التوبة**: الاعتراف والندم والإقلاع.

ـ **اليقين**: ما عظَّم الحق في عينيك، وصغَّر ما دونه عندك، وأثبت الخوف والرجاء في قلبك.

ـ وكان يقول: المشاهدات للقلوب، والمكاشفات للأسرار، والمعاينات للبصائر، والمرئيات للأبصار.

---

(١) الصوف علامة على لبس الخشن من الثياب، زهداً في المتاع الدنيوي.

(٢) الكونان: هما الدنيا والآخرة.

(٣) المشار إليه عند الصوفية هو الله تعالى.

(٤) العلل هنا مقصود بها مزالق اللغة.

وتوفي الروذباري بمصر، بعد أن نال مكانة صوفية بارزة، وتقديراً عميقاً عند معاصريه وتلاميذه، وكان مما قاله قبل وفاته، هذه الأبيات:

[البسيط]

ولـو مضى الكلُّ مني لم يكن عجبا   وإنمــا عجـبي لـلبعض كـيف بـقي
أدركْ بقيــةَ روحٍ فيــك قــد تلفتْ   قبــل الفـراقِ فهــذا آخــرُ الــرمقِ

وإذا حاولنا أن نتعـرف على المزيـد من تصوف الـروذباري، من خـلال أشعاره، فإن أول ما يستوقفنا هو تلك الغزلية الصـوفية الـرقيقة التي يبث فيهـا أشواق محبته قائلاً:

[الكامل]

روحي إليـك بكُلِّها قـد أجمعتْ   لـو أن فيـك هـلاكها مـا أقلعتْ
تبكي إليــك بكُلِّهــا عـن كُلِّهــا   حتى يُقـال: من البكـاءِ تقـطَّعتْ
فــانــظرْ إليهــا نــظرةً بتعــطُّفٍ   فـلطالمــا مَتَّعْتُهَــا فتمـتَّعَـتْ

ومن أعقد أشعار الروذباري وأكثـرها ذكـراً للضمائـر، تلك الأبيات التي أراد فيها الإشارة لضرورة ستر المحبة وصون سرها عن الشيوع في غير أهلها، فقال:

[الخفيف]

بــكَ كـتمــان وَجْــدِهِ بــك عَـنْــهُ   لــكَ مِنهُ، وعنــه مــا لــكَ مِنْــهُ
مَــنْ إذا لاح لائــحُ لــمَــشُــوقٍ   هــامَ وجــداً عليــكَ إنْ لم تَـكُنْــهُ
وإذا أَفَــلَ الأُفُــولُ بِــبَــيْــنٍ   بــانَ عنــه فبــان إنْ لـم تُـبِــنْــهُ
يا فتى الحبِّ، بل فتى الحقِّ، سرِّي   عَـنْــهُ مُسْـتَــوْدَعٌ لــديــكَ فَصُـنْــهُ

ثم يعاود الروذباري رقيق الشعر، فيتناول القاعدة الصوفيـة في المحبة، تلك القاعدة التي لا تعتـرف بمحبة الله في قلب، إلا إذا خـلا هذا القلب من حب سـواه! فإذا لم يتحقق شـرط المحبة الخـالصة، فـلا خير فيهـا.. يقـول الشيخ:

[الكامل]

مَنْ لم يكُنْ بـك فـانيـاً عن حُبِّـهِ وعَنِ الهـوى والأُنْسِ بـالأحبـابِ
أو تَـيَّمَـتْـهُ صبـابـةٌ جـمعتْ لَـهُ مـا كـان مفتـرقـاً مِـنَ الأسبـابِ
فـكـأنَّـهُ بـيـن الـمـراتـب واقـفٌ لـمـنـالِ حظٍّ أو لـحُسْـنِ مـآبِ

ومن شعـره: [المتقارب]

تـأمَّـل مِـن بعـد تَـأْمـيـلهِ حلولَ فَنَـائـك صفـو الـوصـالِ
مـوانـع عنـد احتـواء الـوصـالِ إليك عن الوصـلِ في كل حـالِ
إلى أن يـردَّ عليـك الـصفـاتِ بنعتِ التـمكُّـنِ عنـد الـكمـالِ
فـإقـنـعْ بـقَـنْـعَـتِـهِ إنْ تـراه وإبق مـدى لحظةٍ في النـوالِ

في تلك الأبيات السابقة، يشير الروذباري في البيت الأول، إلى الأمل في القرب من الله. فهو يدعو الصوفي الذي صدق فناؤه في الله، إلى الاستبشار والترقب، لأنه تعالى وعد الصادقين في المحبة بالقرب.. وفي البيت الثاني، نجد الروذباري يتحدث في دقيقة صوفية، هي أن القرب من الله لا يتحقق بتمامه ما دام الإنسان حيًّا، فهناك موانع للوصل الأتم، منها بقاء الجسد! وهنا نلاحظ تفرقة الروذباري بين مصطلحي الوصال والوصل، وهي تفرقة صوفية دقيقة كل الدقة. وفي بقية الأبيات يدعو الروذباري إلى قناعة الواصل بلحظة سريعة من القرب الإلّهي، وهي لحظة مرحلية لا تزال فيها الأقنعة (حجب النور والظلمة) تعوق المشاهدة التامة لجمال المحبوب. ثم تأتي اللحظة الأخيرة (التمكن) حتى تتوارد الصفات الإلّهية على الصوفي، الذي كساه الله رداء الكمال.. وتلك هي الفكرة التي ستقوم عليها بعد ذلك أعمق نظريات التصوف: نظرية الإنسان الكامل.

وأخيراً . . يقوم الروذباري على قدم (الشكر) الذي هو واحد من مقامات أهل الطريق، فيتوجه إلى مولاه قائلاً: [البسيط]

لـو كـلُّ جـارحـةٍ مني لهـا لغـةٌ تثني عليـك بمـا أوليت من حسنِ
لكـان ما زاد شكـري إذ شكرتُ بـه إليـك أزيـدُ في الإحسـان والمننِ

* * *

بخصوص الروذباري يمكن الرجوع إلى:

طبقات الصوفية للسلمي - الرسالة القشيرية - التعرف للكلاباذي - معجم البلدان - حلية الأولياء - كشف المحجوب - صفة الصفوة - المنتظم - دول الإسلام - البداية والنهاية لابن كثير - النجوم الزاهرة - حسن المحاضرة - سير أعلام النبلاء - العبر - شذرات الذهب.

شهاب الدين السُّهْرَوَرْدِي
(المقتول ٥٨٧ هجرية)

أبـداً تحـنُّ إليكـم الأرواحُ ووِصَـالكم رَيحَانُهـا والراحُ
[الكامل]

هو شيخ الإشراق الذي مـات في شبابـه! صاحب المؤلفـات التي كتبها وهو في الثلاثين من عمره، ولا تزال تشغـل بال مشـايخ الـدارسين من العرب والمستشرقين. . وهو المتوحد الذي بحث في زمانه عن رجلٍ واحـد يشاركـه الحكمـة، فلـم يجـد! فتحسَّر قـائلاً: هـا هـو ذا سنِّي قد بلـغ إلى قريـب من ثلاثين سنة، وأكثر عمري في الأسفار والاستخبار والتفحُّص عن مشاركٍ مطَّلعٍ على العلوم، ولم أجد من عنده خبرٌ عن العلوم الشريفة، ولا من يؤمن بها.

ولـد أبـو الـفتـوح يـحيـى بـن حبش، الـملقَّـب بـشـهـاب الـديـن السهروردي[1]، ببلدة فارسية بأرض الجبال قُرب زنجـان تسمى سُهْرَوَرْد، في بدء النصف الثاني من القـرن السادس الهجـري، ولقي مصيره المفجـع حين بلغ السادسة والثلاثين من عمره. . ولهذا المصير تفصيل سنذكره فيما بعد.

ويـرتحل السهـروردي من بلدته إلى (مـراغـة) ليتعلم الحكمـة وأصـول الفقـه من الشيخ مجـد الدين الجيلي، ثم يـرحل مـرة أخـرى إلى (أصفهـان)

---

(١) هنـاك العديـد من المشهورين بلقب «السهـروردي» فإلى جـانب الشخصية التي نتحدث عنها هنـا، يُعـرف بهـذا اللقـب: الشيـخ أبـو النجيب السهـروردي المتوفى ببغـداد سنة ٥٦٣ هجـريـة ـ الشيخ شهاب الدين أبو حفص السهروردي صاحب: (عوارف المعارف) المتوفى ٦٣٣ هـ.

ليدرس المنطق على يد ظهير الدين الفارسي. . ولا يلبث أن يتجه إلى (ماردين) ليأخذ علوم اللغة والفلسفة من فخر الدين المارديني. وبعد اكتمال العدة، والتزود بالعديد من العلوم، يصحب الصوفية، ويشغل نفسه بالرياضات الروحية والخلوات حتى تتكشف له حقائق الأولياء. . فيخرج من خلوته وهو شاب لم يتعد العشرين إلا بسنوات قليلة، فيسيح في الأرض متأملاً، مستغرقاً، محاولاً الارتقاء إلى نبع الأنوار العلوية.

وفي سياحاته بأرض الله، يمر السهروردي على ما لا حصر له من البلدان، فنراه مرة في (ميافارقين) ومرة في (ديار بكر) ومرة في الأناضول وبلاد الروم، ثم نراه للمرة الأخيرة في (حلب) حيث كان موعده مع القتل. . وطيلة تلك الارتحالات، كان السهروردي يمضي في زي الدراويش غير ملتفت إلى متاع الدنيا. يقول المؤرخون: في سنة ٥٧٩ هجرية، قدم شهاب الدين السهروردي إلى حلب، ونزل في مدرسة الحلاوية، فلما حضر الدروس وبحث مع الفقهاء، كان لابساً «دلق» وهو مجرد باسريق وعكاز خشب، وما كان أحد يعرفه، فلما بحث وتميَّز بين الفقهاء، أخرج شيخ المدرسة له ثوباً عنابياً وغلالة ولباساً، وقال لولده: تروح إلى هذا الفقير وتقول له: والدي يسلِّم عليك ويقول لك، أنت رجل فقيه فلتحضر الدرس بين الفقهاء، وقد سيَّر لك والدي شيئاً تلبسه إذا حضرت. . فلما قال الصبي ذلك للسهروردي، ابتسم، وأخرج له فصّاً من الأحجار الكريمة، وطلب منه أن يذهب إلى سوق الجواهرية ليعرف ثمنه، فذهب الصبي وعرض الفص، وتصادف أن كان الملك الظاهر هناك، فأوصله إلى ثلاثين ألف درهم. وعاد الصبي إلى السهروردي وأبلغه الأمر، فأخذ منه الفص ودقَّ عليه بحجر كبير حتى جعله تراباً لا يصلح لشيء، ثم ناول الصبي الثياب التي أحضرها، وقال له: خُذْ يا ولدي هذه الثياب، ورُحْ إلى والدك، وقبِّل يده عني، وقل له: «لو أردنا الملبوس ما غلبنا».

وكانت للسهروردي فلسفته الطريفة في مسألة الثياب هذه. . حكى أحد فقهاء قزوين أنه نزل برباط صوفي بأرض الروم، وكان الوقت شتاءً، فسمع صوت قارىء للقرآن، فقال للخادم الذي في الرباط: مَنْ هذا القارىء؟ فقال: شهاب الدين السهروردي. فقال له: إنني سمعت به منذ مدة، وأريد أن أراه، فأدخلني عليه. قال الخادم: لا يدخل عليه أحد، لكنه إذا علت الشمس يخرج ويصعد السطح، فأبصره. . يقول هذا الفقيه: فقعدت حتى خرج، فرأيته وعليه ثوب من اللباد الأسود، فقمت وسلَّمت عليه، وعرَّفته أني قصدت زيارته، وسألته أن يجلس معي ساعة، فطوى مصلاه، وجلس، فجعلت أحدثه وهو في عالم آخر، فقلت له: لو لبست شيئاً غير هذا اللباد. فقال: يتوسَّخ! فقلت: تغسله. فقال: يتوسَّخ! فقلت: تغسله. . قال السهروردي: ما حييتُ لغسل الثياب، لي شغلٌ أهم من ذلك.

. . ترك السهروردي العديد من المؤلفات الرائعة، فكتب باللغة العربية: حكمة الإشراق ـ التلويحات ـ المقاومات ـ الألواح العمادية ـ الواردات ـ الغربة الغربية ـ كلمات ذوقية ونكات شوقية. . وكتب بالفارسية: لغات موران (لغة النمل) صفير سيمُرْغ (صفير العنقاء) آوزبر جبرئيل (أصوات أجنحة جبرائيل). . ومن مؤلفاته، ما كتبه بالعربية ثم أعاد كتابته بالفارسية، مثل: هياكل النور. تلك بعض الأمثلة من تآليف السهروردي التي تبلغ قرابة الخمسين، والتي تبلغ قدراً من الرمزية الساحرة في ألفاظها ودلالاتها، والتي لا زالت تشغل بال الدارسين وتلهب خيال الصوفية.

أما مذهب السهروردي في التصوف، فقد بدأ انطلاقه من السَّوْرة الروحية الهائلة التي فجَّرها الحلاَّج وانفجر بها. وذلك ما دعا المستشرق هنري كوربان ـ وهو من أفضل المتخصصين في السهروردي ـ للقول: لقد

بدأ السهروردي حياته الروحية بنغمة من شعر الحلاج في التوحيد، وقضى عمره يوقِّع عليها متنوع الألحان، وتلك النغمة هي : [الطويل]

لأنوارِ نورِ النورِ في الخلق أنوارُ ... وللسرِّ في سِرِّ المُسرِّين أسرارُ

وقد غاص دارسو السهروردي في مؤلفاته، لبحث مذهبه الصوفي. لكنهم لم يتوقفوا في غوصهم إطلاقاً عند شعره الصوفي، بل إن ما كتب عنه يخلو تماماً من ذكر ما ترنَّم به من أشعار، حتى تلك المقالات والدراسات التي جُمعت في كتاب واحد صدر في الذكرى المئوية الثامنة، لم يرد فيها بيت شعري واحد للسهروردي. فكان أن اشتهر الرجل في مجال البحث، وظل مجهولاً في عالم الشعر الصوفي.. لهذا، فسوف ندخل لفكر الرجل من باب الأشعار، كي نتذوق أدبه ونتعرف على فكره في آن واحد. يقول شهاب الدين السهروردي: [الطويل]

لأنوارِ نورِ اللهِ في القلبِ أسرارُ ... وللسِّرِّ في سِرِّ المُحبين أسرارُ
ولمَّا حَضَرْنا للسرورِ بمجلسٍ ... وحَفَّ بنا من عالم الغيبِ إسْرَارُ
ودارتْ علينا للمعارف قهوةٌ ... يطوفُ بها من جوهر العقلِ خَمَّارُ
فلمَّا شربناها بأفْواهِ فَهْمِنا ... أضاءَ لنا منها شموسٌ وأقمارُ
وخَاطَبنا في سُكْرنا عند صَحْونا ... قديمٌ عليمٌ دائمُ العفوِ جبارُ
وكَاشَفنا حتى رأيناهُ جهرةً ... بأبصارِ صدقٍ لا تُواريه أسْتارُ
فَغِبْنَا به عَنَّا وَنِلْنَا مرادنا ... ولم تبق فينا بعدَ ذلك آثارُ
سَجَدنا سُجُوداً حين قال تمتَّعوا ... برؤيتنا إنِّي أنَا لكُمُ جارُ

في هذه الأبيات ينطلق مما سبق أن انتهى إليه الحلاج، لكنه راح يستكمل مذهب النور الصوفي، أو ما عُرف عنه باسم (الإشراق) فيحدثنا عن

حضور الأنوار في قلبه عند ارتقائه إلى عالم الحضرة الإلّهية، وشربه من خمر المعارف الأزلية. ففي هذا المقام أضاءت في قلبه «شموس وأقمار» وفي هذا المقام تكشفت الأنوار الربانية الباهرة في بصيرة الصدق حتى بدت دون احتجابٍ خلف المحسوسات ـ أو الأستار في الأبيات. وفي هذا المقام كانت غيبة الصوفي عن ذاته، واضمحلال كيانه الإنساني مع سطوة نور التجلي الإلّهي. وإلى تلك الأخيرة، أشار السهروردي في أبيات أخرى فقال حين أفاق من غيبته واضمحلاله: [البسيط]

أَفْنَيْتُ بَعْدكُمُ، هل عندكم خبرُ ... طرفي ودمعي، فلا عينٌ ولا أثرُ
قد كُنتُ أحذرُ أن أشقى بفُرْقتكم ... فقد شقيتُ بها لم ينفع الحذرُ
المرءُ في كل يومٍ يرتجي غَدَهُ ... ودون ذلك، مخبوءُ له قَدَرُ
القلبُ يأملُ والآمالُ كاذبةٌ ... والنفسُ تلهو وفي الأيامِ مُعْتَبَرُ

ها هو السهروردي يتحسَّر على إفاقته من سكر أنوار التجلي، ويهفو قلبه إلى الانغمار في بحر النور، ويحكي شقوته مع أيام الاحتجاب التي كان القدر يخبئها له، ولا تنفع مع هذا القدر أمنيات قلب العاشق، يُقْسم بالصبح النوراني وبالإشراق الرباني، قائلاً: [المنسرح]

وكلِّ صبحٍ وكلِّ إشراقِ ... أبكي عليكم بدَمْعِ مُشْتاقِ
قد لسعتْ حَيَّةُ الهوى كبدي ... فلا طبيب لها، ولا راقِ
غيرُ الحبيب الذي شَغُفْتُ به ... فإنَّه رُقْيتي وتِرْيَاقِي

ولا يكتفي السهروردي بأن يجعل الحبيب هو الرقية الحارسة والترياق الشافي، بل يُقْسم مرة أخرى بصفو الأرواح في عالم «ألست بربكم» حين كانت متنعمة بقرب الله، مؤكداً أن قدمه لم تتجه لغير طريق الحب، وأن في

انقطاعه عن الناس بالخلوة صلةً بالحبيب، وأن وجوده بين الناس عدمٌ:

[دوبيت]

أقسمتُ بصفــو حبكم فـي القــدمِ ... مــا زَلَّ إلى غيــر هــواكُمُ قَــدَمي
قــد أمــزج حُبّكــم بلحـمي ودمـي ... قَـطْعي صِلَتي وفي وُجُـودي عـدمي

ويـظل الشوق يـدفعه، فيشيـر إلى العروج لعـالم الأنوار بلفظ «السفـر» داعياً نفسه إلى عدم التعلق بزخرف المحسوس، متضجـراً من صحبة الأغيـار والإقامة في الصحارى، بينما الطريق إلى جنة الأنوار يدعوه: [الوافر]

أَقُـولُ لجـارتي والـدمـعُ جَـارِي ... وَلِي عـزمُ الـرحيـلِ عن الـدِّيَـارِ
ذَرِيـني أَنْ أَسيــرَ ولا تَنُـوحِـي ... فَـإِنَّ الشهبَ أَشْرَفُهَـا السَّـوَارِي
وإنِّي في الـظلامِ رأيتُ ضَـوءاً ... كـأَنَّ الـليــلَ زُيِّنَ بِـآلـنَّـهَـارِ
إلى كَمْ أجعـلُ الحيَّات صحبي ... إلى كَمْ أجعــلُ التنينَ جــاري
وكَمْ أرضى الإقــامــةَ في فــلاةٍ ... وفــوقَ الفَــرْقَــدين رأيتُ دَارِي
ويــأتيني من الـصنعــاء بَــرْقٌ ... يُــذَكّــرني بهــا قُــرْبَ المَــزَارِ

وبعـد هـذه المقـدمـات الشـوقيـة والتـرنيمـات العشقيـة، يـدخــل بنـا السهروردي إلى لُبِّ مذهبـه، وهو ـ كمـا أسلفنا ـ مـا يعرف بمـذهـب الإشراق ـ هـذا المذهب يبـدأ من اعتبار الله (نـور الأنـوار) واعتبـار مـا سـواه (مـراتب نورانية) أما المادة الكثيفة المحيطة بنا فهي (الجهات الظلمانيـة).. من خلال هذا التقسيم تبدأ الإشراقية عند السهروردي في تفصيل مراتب النـور، فتذكـر أول الأمر: الأنوار المجردة.. وهي على نوعين: أنـوار قاهـرة علوية لا طـاقة لعـالمنا الأرضي بهـا، نظراً لشـدة نوريتهـا؛ وأنـوار قـاهـرة عـرضيـة بهـا تتم الإشراقات وتكون المشاهدات في بصيرة المتصوف.

وفي كتابه «حكمة الإشراق» يعدِّد لنا السهروردي تلك الأنوار التي تشرق على السالكين، إخوان التجريد، ويذكر صفة كل رتبة نورانية، فيقول:

«وإخوان التجريد تشرق عليهم أنوارٌ، لها أصناف: «نورٌ بارقٌ يرد على أهل البدايات وينطوي كلمعة بارق لذيذ. ويرد على غيرهم نورٌ بارقٌ أعظم منه وأشبه منه بالبرق، إلا أنه هائلٌ، وربما يُسْمع معه صوت كصوت رعدٍ أو دويّ في الدماغ. نورٌ واردٌ لذيذ يشبه وروده ورود ماءٍ حارٍّ على الرأس. نورٌ ثابتٌ زماناً طويلاً شديد القهر يصحبه خَدَرٌ في الدماغ. نورٌ لذيذٌ جداً لا يشبه البرق بل تصحبه بهجةٌ لطيفة حلوة، يتحرَّك بقوة المحبة. نورٌ محرقٌ يتحرَّك من تحرُّك القوى القريبة، وقد يحصل من سماع طبولٍ وأبواقٍ وأمورٍ هائلة. نورٌ لامعٌ من خطفةٍ عظيمة يُظهر مشاهدةً وإبصاراً أظهر من الشمس في لذة مُغرقة. نورٌ براقٌ لذيذٌ جداً يُتخيَّل كأنه متعلِّق بشعر الرأس زماناً طويلاً. نورٌ سانحٌ في قبضةٍ متلألئةٍ يُتَراءى كأنها متمكنة في الدماغ. نورٌ يشرق من النفس على جميع الروح النفساني، فيظهر كأنه تدرَّع بالبدن. نورٌ مبدؤه في صولةٍ، عند مبدئه يتخيل الإنسان كل شيءٍ يتهدَّم. نورٌ سانحٌ يسلب النفس، فيُشَاهد تجردها عن الجهات وإن لم يكن لصاحبها علمٌ قبل ذلك. نورٌ يتخيل معه ثقلٌ لا يكاد يطاق. نورٌ معه قوة تحرِّك البدن حتى يكاد يقطِّع مفاصله..».

وإذا تأملنا هذه الفقرة، سنجد السهروردي يصف النور كأن له جسماً، مع أنه لم يقرأ نظرية أينشتين! المهم، فللسهروردي مذهب إشراقي جمع فيه بين التصوف والفلسفة والثقافات الفارسية القديمة. وقد قام الدكتور محمد علي أبو ريان بمناقشة تفاصيل هذا المذهب، في بحثه الرائع الذي جعله بعنوان (أصول الفلسفة الإشراقية عند شهاب الدين السهروردي) فمن شاء الاطلاع على التفاصيل، فليرجع لهذا البحث. أما الآن، فلنرجع نحن إلى

شعر السهروردي، فنراه يعارض قصيدة الشيخ الرئيس «ابن سينا» في النفس، وهي قصيدة عينية مشهورة، مطلعها: [الكامل]

هَبَطتْ إليكَ من المحلِّ الأرفعِ   وَرْقَـاءُ ذات تـعـزُّزٍ وتـمـنـعِ
مَحْجـوبـةٌ عن كُـلِّ مقلةِ عـارفٍ   وهي التي سَفَـرَتْ ولم تَتَبَـرْقَـعِ

كـان السهروردي يقلِّل من أهميـة ابن سينـا كفيلسـوف ـ والحقُّ معـه، فقيمة ابن سينا وروعة عبقريتـه في الطب لا الفلسفـة ـ ولم يعدّه السهـروردي ضمن الإشراقيـين والحكماء المتألهين، فكان يقول: «لو كان ابن سينا إشراقيًّا، لتضوع ريحُ الإشراقية عليه» قاصداً بذلك تردُّد ابن سينا بين مذاهب أفـلاطون وأرسطو وعدم تمكُّنـه من السلوك الصوفي والـرياضـات الروحيـة. المهم، أن السهروردي يعارض عينية ابن سينا الشهيرة، فيقول: إن النفس الإنسانية:

[الكامل]

خَلَعتْ هياكلها[1] بجرعاء الحمى[2]   وصَبَتْ لمعنـاها القـديم تَشَـوُّقـا
محجوبةٌ سَفَـرتْ وأسفر صُبْحُهـا   وتجـرَّدتْ عمـا أُجَـدَّ وأُخْلَقـا
وتلفتتْ نحـو الـديـارِ فشـاهـدتْ   رَبْعـاً[3] عَفَتْ أطـلالـه فتمـزَّقـا
وغَـدَتْ تُرَدِّدُ في الفضـاء حنينهـا   فتـروم مـرتفعـاً زَلُـوقَ المـرتقى
فكـأنهـا أَضْـوَتْ إضـاءةَ بـارقٍ   ثم انـطوى فكـأنـه مـا أَبْـرَقـا
وقَفَتْ تسـائله فـردَّ جـوابـهـا   رَجْعُ الصدى: أن لا سبيلَ إلى اللِّقا
فبكتْ بعينِ الحالِ مَعْهَدَ عَهْدِها   أسفـاً على شملٍ مضى وتفـرَّقـا

---

(١) الهياكل: الأبدان.
(٢) جرعاء الحمى: موضع، يشير به السهروردي إلى لحظة الفناء.
(٣) الربع: المنزل ودار الإقامة.

وفي هذه الأبيات، يعبِّر السهروردي عن قلق النفس الإنسانية المسجونة في البدن والحياة الدنيوية، تعاني شجون المسجون وتترقب لحظة الرجوع إلى الأصل، ذلك الرجوع الذي لا يكون إلا بالموت. وهنا يأتي السؤال: كيف مات السهروردي؟

لقد ذكرنا فيما سبق ما كان من نزول السهروردي في المدرسة الجلاوية بحلب، وما كان من إرساله الفص مع الصبي إلى السوق ومشاهدة الملك الظاهر للفص. . ولنترك ابن أبي أصيبعة يروي لنا بقية ما حدث:

رجع الصبي إلى والده «افتخار الدين» بالملابس التي أرسلها للسهروردي، وحكى له ما كان من أمر الفص وتفتيته. فبقي افتخار الدين حائراً في أمر هذا الوافد على المدرسة التي يشرف عليها. وسأل الملك الظاهر عن الفص، وأراد أن يشتريه، فقيل له: إن الصبي عاد به إلى المدرسة الجلاوية، فركب السلطان ونزل إلى المدرسة وقعد في ساحتها وطلب «افتخار الدين» للمثول بين يديه. فلما جاء، طلب منه الفص على أن يدفع فيه ثلاثين ألف درهم، فقال له افتخار الدين: إنه لأحد الصوفية النازلين في المدرسة. فتفكَّر الملك الظاهر ثم قال: إن صدق حدسي، فهذا شهاب الدين السهروردي.

وقام الملك الظاهر فاجتمع بالسهروردي، وأخذه ضيفاً عليه في قلعة حلب، وصارت له منزلة عظيمة عند الملك. لكن الفقهاء اغتاظوا من هذا الوافد الجديد، وحسدوا تلك المنزلة التي احتلها. . ثم زاد الغيظ والحسد مع كل مرة يظهر فيها عجزهم العلمي والفقهي في جلسات الجدل والمناظرة التي دارت في البلاط، والتي ظهر فيها علو كعب السهروردي في العلوم والمعارف، مما أفحم الفقهاء.

فاجتمع الفقهاء الغيرانون على مكيدة باهرة، صاغوها في سؤال ماكر توجَّهوا به للسهروردي:

* هل يستطيع الله أن يرسل نبيًّا بعد محمد؟

هذا السؤال الخطير يُعرف في المنطق باسم «قياس الإحراج» ولا توجد له إلا الإجابات القاتلة. فإذا قال: إن الله يمكن أن يرسل نبيًّا بعد محمد ﷺ فهذا كفرٌ، لأنه آخر الأنبياء وخاتمهم. وإذا قال: إن الله لا يستطيع ذلك، فهذا أيضاً كفرٌ، لأنه يحدُّ من قدرة الله تعالى ويعني عجزه عن الإتيان بشيء ما.. وردَّ السهروردي بذكاءٍ شديدٍ، فقال:

* ليس لقدرته حدٌّ!

ومع ذلك، استنتج الفقهاء من تلك الإجابة أن السهروردي يعتقد بإمكان إرسال نبيٍّ بعد محمد ﷺ وهذا خروج عن دين الإسلام. يقول المؤرخون: «فازداد تشنيع الفقهاء عليه، وعملوا محاضر بكفره، وسيَّروها إلى دمشق إلى الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي، وقالوا: إن بقي هذا الرجل فإنه سيفسد اعتقاد الملك الظاهر، وكذلك إن أُطلق فإنه يفسد أي ناحية كان بها من البلاد. وزادوا عليه أشياءَ كثيرة من ذلك، فبعث صلاح الدين إلى ولده الملك الظاهر بحلب، كتاباً في حقه بخط القاضي الفاضل، وهو يقول فيه: «إن هذا الشهاب السهروردي لا بد من قتله، ولا سبيل أن يُطلق، ولا يبقى بوجهٍ من الوجوه».

يقال: لما بلغ السهروردي ذلك، وأيقن أنه مقتول، ولا سبيل لإطلاقه، أو بقائه بوجه من الوجوه، اختار أن يترك في مكان مفرد دون طعام أو شراب إلى أن يلقى ربه، ففعل به ذلك.. ويقال: خُنق بوترٍ.. ويقال: قُتل بسيفٍ.. ويقال: حُطَّ من القلعة وأُحرق! ويقول ابن أبي أصيبعة: قال السهروردي عند وفاته، وهو يجود بنفسه:

[الرمل]

قـل لأصحـابي رأونـي ميتـاً ... فـبكـونـي إذ رأونـي حَـزَنـا
لا تـظنـونـي بـأنـي مـيـتٌ ... لـيس ذا الـمـيـت والله أنـا
أنـا عـصفـورٌ وهـذا قَـفَـصي ... طـرت عـنـه فـتخـلَّى رَهَـنـا
وأنـا الـيـوم أُنَـاجـي مَلأً ... وأرى الله عـيـانـاً بـهَـنَـا
فـاخلعوا الأنفسَ عن أجسادها ... (لِتَـرَوْنَ) الحـقَّ حـقًّـا بيِّنـا
لا تـرعكم سكـرةُ المـوتِ فما ... هـي إلا انـتـقـالٌ من هُـنَـا
عـنصـرُ الأرواحِ فـينـا واحـدٌ ... وكـذا الأجسـامُ جسـمٌ عَمَّـنـا
مـا أرى نـفـسـي إلا أنـتـمُ ... واعـتـقـادي أنـكـمْ أنـتـم أنـا
فـمتـى مـا كـانَ خيـراً فَـلَنَـا ... ومـتـى مَـا كَـانَ شَـرًّا فـبنـا
فَـآرْحَمـوني تَـرْحَمُـوا أنفسكم ... وآعـلمـوا أنـكـمُ فـي إثـرنـا
مَـنْ رآنـي فـليقـوِّ نـفـسـه ... إنّمـا الـدُّنيـا على قَـرْنِ الفنـا
وعـليكـم مـن كـلامـي جـملةٌ ... فـسـلام الله مَـدْحٌ وثـنـا

وانتهت حياة السهروردي، وهو في السادسة والثلاثين!

* * *

أما أحلى أشعار السهروردي، وأشهرها، فهي تلك القصيدة التي حفظ لنا ياقوت الحموي والشهرزوري وابن أبي أصيبعة وابن خلكان، مجموعة متفاوتة من الأبيات. وبمقارنة ما ورد عند هؤلاء المؤرخين من أبيات القصيدة، نستخرج نَصَّها الآتي:

[الكامل]

أَبـداً تَـحِـنُّ إلـيـكـم الأرواحُ ... ووصـالـكـم رَيْـحَـانُـهَـا والـرَّاحُ
وقـلوبُ أهـل ودادكم تـشتـاقـكـم ... وإلى لـذيـذِ وِصَـالكـم تَـرْتَـاحُ
وارحـمتـا لـلعـاشقـين تَـكَـلَّفـوا ... سَتْـرَ المـحبَّـةِ والـهـوى فَضَّـاحُ
بـالسِّـرِّ إنْ بَـاحُـوا تُبَـاحُ دمـاؤهم ... وكَـذَا دِمَـاءُ الـبـائـحـين تُـبَـاحُ

وإذا هُمُ كَتَموا تحدَّث عنهُمُ ... عند الوُشَاةِ المدمع السَّحَّاحُ
وبَدَتْ شواهدُ للسَّقامِ عليهمُ ... فيها لمُشْكِلِ أمرهم إيضاحُ
خَفْضُ الْجَنَاحِ لكم وليس عليكُمُ ... للصَّبِّ في خَفْضِ الجَنَاحِ جُنَاحُ
فإلى لِقَاكُمْ نَفْسُهُ مُشْتاقةٌ ... وإلى رِضَاكُمْ طَرْفُهُ طَمَّاحُ
عُودوا بنورِ الوصلِ من غَسَقِ الجَفَا ... فالهَجْرُ لَيْلٌ والوِصَال صَبَاحُ
هذا الأنامُ هُمُ الظلامُ وإنما ... أهلُ المحبةِ في الظلامِ صُبَاحُ
صَافَاهُمُ فَصَفَوْا له فقُلُوبُهُمْ ... من نُورها المِشْكَاةُ والمِصْباحُ
وتمتَّعوا فالوقت طاب بقُرْبهم ... رَقَّ الشراب ورقَّت الأقداحُ
يا صاحِ ليس على المحبِّ ملامةٌ ... إن لَاحَ في أُفْقِ الوصال صَبَاحُ
لا ذنبَ للعشاق إن غلب الهوى ... كِتْمَانَهُمْ فنما الغرامُ فباحوا
سَمَحوا بأنفسهم وما بخلوا بها ... لما دَرَوْا أن السماحَ رَبَاحُ
ودعاهُمُ داعي الحقائق دعوةً ... فغدوا بها مُسْتأنسين وراحوا
ركبوا على سُفُنِ الوفا ودموعهم ... بحرٌ وشدَّة شوقهم ملَّاحُ
والله ما طلبوا الوقوف ببابه ... حتى دُعُوا وأتاهم المفتاحُ
لا يَطْرَبُونَ لغير ذكر حبيبهم ... أبداً فكلُّ زمانهم أفراحُ
حضروا فغابوا عن شهود ذواتهم ... وتهتَّكوا لمَّا رَأَوْهُ وصاحوا
أَفْنَاهُمُ عنهم وقد كُشفت لهم ... حُجُبُ البقا فتلاشَتِ الأرواح
فتشبَّهوا إنْ لم تكونوا مثلهم ... إنَّ التشبُّهَ بالفلَاحِ فَلَاحُ
قُمْ يا نديمُ إلى المدام وهاتها ... فَبِحَانِهَا قد دارت الأقداحُ
من كَرْمِ إكرامٍ بِدَنِّ ديانةٍ ... لا خمرةٍ قد داسها الفلَّاح[1]
هي خمرةُ الحُبِّ القديم ومنتهى ... غَرَضِ النديم فَنِعْمَ ذاك الراحُ
هي أسكرت في الخُلْدِ آدم أولاً ... وعليه منها خِلْعَةٌ ووِشَاحُ

(١) يشير السهروردي هنا إلى الفارق بين الخمر الحسية، وبين خمر التوحيد الأزلي.

وكـذاكَ نـوحٌ في السفينـة أسكـرتْ ... ولـه بـذلـك رنَّـةٌ ونـيـاحُ
متـرنِّحـاً وهـو الغـزالُ مشـرَّداً[1] ... وبخـدِّه الصـهبـاءُ والتـفـاحُ
وبثغـره الشَّهْدُ الشَّهِيُّ وقـد بـدا ... في أحسن اليـاقـوت منـه أقـاحُ

* * *

بخصوص ترجمات السهروردي ومقتطفات أشعاره يمكن الرجوع إلى:

عيون الأنباء ـ وفيات الأعيان ـ نزهة الأرواح ـ معجم الأدباء ـ سير أعلام النبلاء ـ شذرات الذهب.

وبخصوص الدراسات والأبحاث المتعلقة بتصوفه، يُراجع بحث الدكتور: محمد علي أبو ريان، بالإضافة إلى مقالة هنري كوربان المهمة التي ترجمها الدكتور: عبد الرحمٰن بدوي في كتاب: شخصيات قلقة.. وقد احتوى (الكتاب التذكاري) على مقالات ودراسات مهمة جدًّا حول السهروردي وأفكاره.

---

(١) في الأصل (الشارد) وبها لا يستقيم الوزن..

أبو مَدْيَن الغَوْث
(المتوفى ٥٩٤ هجرية)

الله قُلْ، وذَرِ الوجودَ وما حَوَى إنْ كنتَ مُـرتاداً بصـدقِ مـرادِ
[الكامل]

تَمَلَّكتُمُ عقلي وطَـرْفـي ومَسْـمَعـي ورُوحي وأَحْشـائي وكُلِّي بـأَجْمَعي
وتَيَّهْتُمُـوني في بـديـعِ جمـالكمْ ولم أَدْرِ في بحر الهوى أين مَوْضِعي
وأوصيتـمـوني لا أبـوحُ بسِـرِّكُمْ فـبـاحَ بمـا أُخْـفي تَـفَيُّضُ أَدْمُـعي
ولمَّـا فَنَـى صَبْـري وقَـلَّ تجلُّـدي وَأَرَّقنـي نَـوْمـي وفـارقْـتُ مضْجعـي
وشَكَوْتُ لقاضي الحبِّ، قلتُ أَحبَّتي جَفـونـي وقـالـوا أَنـتَ للحُبِّ مُدَّعِي
وعنـدي شهـودٌ أربـعٌ يشهـدون لي غـرامي ووَجْـدِي والسِّقـامُ ومَـدْمعي
فـإن طلبـوا مِنِّي حقـوقَ غَـرامِهِمْ فـإنـي فـقـيـرٌ لا عَـلَيَّ ولا مَـعـي
وإن سَجَنُـونِي في سُجُـونِ جَفَـاهُمُ دخلتُ عليهمْ بـالـنَّبِيِّ المـشفَّـعِ
[الطويل]

في ليلة رائقة بصعيد مصر، حيث تبدو الحقول المترامية كبحر لا آخر له، استمعتُ إلى منشدٍ شجي الصوت يترنَّم بهذه الأبيات. . كان كلما انتقل من بيت لآخر، تقوى النغمات، وتشتدُّ حركة الذاكرين، ويستبدُّ الوجد بقلوب الحاضرين. ولما وصل المنشد للشطر الثاني من البيت الأخير، كان أحد الجالسين قد بلغ المنتهى، فانتفض واقفاً، وطوَّح عمامته، وانطلق بين الحقول النائمة على بساط الليل، مدفوعاً بقوة الجذب إلى اللامحدود. .

ومرت سنوات، قبل معرفتي أن صاحب الأبيات هو: شيخ الشيوخ، شعيب بن الحسين الأندلسي، الشهير بأبي مدين الغوث.. شيخ الشيخ الأكبر، محيي الدين بن عربي.

وُلد أبو مدين في قرية من قرى أشبيلية، اسمها «قطنيانة» في أسرة فقيرة، ونشأ يتيماً يشتغل برعي الأغنام. وحين تاقت نفسه للخروج في طلب العلم، لم يسمح له إخوته، فدبَّر أن يهرب بنفسه. يقول المؤرخون: إنه فَرَّ في ليلة، فلحقه أخٌ له عند الفجر، وأمره بالعودة فرفض، فعزَّ على الأخ الكبير ذلك، وهدَّده، فلم يمتثل.. فاغتاظ أخوه واستل سيفاً وضربه، فتلقى أبو مدين الصبي الضربة على عصا كانت معه. فإذا بالسيف تكسره العصا، وإذا بالأخ المعترض يفسح الطريق قائلاً: يا أخي، اذهب حيث شئت.

وذهب أبو مدين يطلب العلم، فزار طنجة وسبتة، ثم استقر بعاصمة العلم والولاية في بلاد المغرب: فاس.. وكان أبو مدين يسعى في حقيقة الأمر نحو الله، وذلك ما صاغه بعد ذلك شعراً فقال: **[البسيط]**

يا مَنْ علا فرَأى ما في الغيوب وما	تحت الثرى وظلامُ الليلِ مُنْسدلُ
أنتَ الغيَاثُ لمَنْ ضاقت مذاهبه	أنتَ الدليلُ لمن حارت به الحيلُ
إنَّا قَصَدْنَاكَ والآمالُ واثقةٌ	والكُلُّ يدعوكَ ملهوفٌ ومبتهلُ
فإن عَفَوْتَ فذو فَضْلٍ وذو كرمٍ	وإن سَطَوْتَ فأنت الحاكمُ العدلُ

تعكس هذه الأبيات الأربعة، ما يُعرف عند الصوفية بتمام التفويض. وهي درجة عالية من التوكل، يكون فيها الرضا هو الغالب على القلب في الشدة والرخاء معاً، وذلك هو صدق القصد بالمعنى الصوفي.. ولنرجع إلى ما كنا بصدده.

لزم أبو مدين جامع فاس، والتقى هناك بشيخه أبي الحسن بن حِرْزِهِمْ الصوفي، فدرس عليه الفقه وعرف أصول الطريق. كما تلقى دقائق الطريق من الشيخ أبي يَعْزِي الذي كان يقيم بجبل «ايروجان»، وكان لقاؤهما الأول عارماً، يقول أبو مدين: «بقيتُ مدة وأخبار سيدي أبي يعزي تردُ عليَّ وكراماته يتداولها الناس، فملأ قلبي حبُّه، فقصدته مع جماعة الفقراء، فلما وصلنا إليه أقبل على الجماعة دوني، وإذا حضر الطعام منعني من الأكل معهم، وبقيت كذلك ثلاثة أيام، فأجهدني الجوع، وتحيَّرتُ في خواطر ترد عليَّ. ثم قلت في نفسي: «إذا قام الشيخ من مكانه، أمرِّغ وجهي في المكان» فقام، ومرَّغت وجهي، فقمت لا أبصر شيئاً، وبقيت طول ليلتي باكياً: [الطويل]

قليلٌ لمثلي زفرةٌ ونحيبُ ... وليس له إلاَّ الحبيب طبيبُ
وأمثلُ ما يلقى المحبُّ خضوعه ... إذا كان مَنْ يدعوه ليس يُجيبُ

فلما أصبح الشيخ أبو يعلى، دعا أبا مدين، ومسح على عينه، فعاد إليه بصره، ثم مسح على صدره فزالت عنه الخواطر.. وتلقى أبو مدين الكثير من المعارف منه، كما تلقى كذلك بعض تلك المعارف من الشيخ أبي عبد اللّه الدَّقَّاق، ويقال إنه كان أول شيخ يتلقى منه أبو مدين. وبالجملة، فقد صحب أبو مدين بفاس نخبةً من أهل المحبة الإلّهية، وصفوةً من أهل الطريق.. وقد وصفهم أبو مدين في أبياتٍ له، فقال: [البسيط]

أهل المحبة بالمحبوب قد شُغِلُوا ... وفي محبته أرواحهم بذلوا
وخرَّبوا كُلَّ ما يفنى وقد عَمَرُوا ... ما كان يبقى فيا حُسْنَ الذي عملوا
لَمْ تُلْهِهم زينةُ الدنيا وزُخْرُفُها ... ولا جنَاهَا ولا حُلْيٌ ولا حُلَلُ
هاموا على الكون من وَجْدٍ ومن طرب ... وما استقلَّ بهم رَبْعٌ ولا طَلَلُ
داعي التشوف ناداهم وأقْلقهم ... فكيف يُهْنوا ونارُ الشوقِ تشتعلُ؟

مِنْ أولِ الليلِ قد سارت عزائمهم　　　وفي خيام حمى المحبوب قد نزلوا
وَافَتْ لهم خِلَعُ التشريف يحملها　　　عَرْفُ النسيم الذي من نَشْرِهِ ثملوا
هُمُ الأحبةُ أَدْنَاهُمْ لأَنَّهُمُ　　　عن خِدْمَةِ الصَّمَدِ المحبوب ما غفلوا
سبحان مَنْ خَصَّهم بالقرب حين قَضَوْا　　　في حُبِّهِ، وعلى مقصودهم حصلوا

ويخرج أبو مدين من فاس، قاصداً مكة مع الحَجيج.. فيلتقي هناك بالإمام، باز الله الأشهب: عبد القادر الجيلاني. فيتم المراد بهذا اللقاء، ويرجع أبو مدين من حجته وقد نال من صحبته للإمام الجيلاني ما ارتفع به في مقامات الولاية، وما اختتم به معرفته بطريق الصوفية.. والمؤرخون لم يذكروا تاريخ هذا اللقاء، لكننا نعرف من وقائع دراستنا للإمام الجيلاني أنه ذهب للحج مرةً واحدة بعد اشتهار أمره، وقد اشتهر أمره سنة ٥٢١ هجرية بعد أن تصدَّر للتدريس والإفتاء ببغداد، مما يعني أن اللقاء تم بين أبي مدين والإمام الجيلاني حين كان الأول يبتدىء السلوك، والثاني يعتلي كرسي الولاية. المهم، أن أبا مدين ـ وهو بعدُ مبتدىء ـ كان يظنُّ أن شوقه سوف يسكن في مكة والمدينة، باقترابه من الحبيب ﷺ.. لكن الاشتياق ازداد. هنا أدرك أبو مدين ذلك المعنى الذي سوف يشير إليه تلميذه ابن عربي في عبارة رائعة ذكرها في آخر أبواب الفتوحات المكية: الشَّوْقُ يَسْكُنُ باللِّقَاءِ، وَالاشْتِيَاقُ يَهِيجُ بالالْتِقَاء! ولما علم أبو مدين تلك الحقيقة، قال شعراً:

[الكامل]

يا قلبُ زُرْتَ وما انطوى ذاك الجوى　　　عجباً لقلبٍ بالنعيم قد اكتوى
زَادَ الغرامُ وزَالَ كُلُّ تَصَبُّرٍ　　　عالجته قبل الزيارة فانطوى
ولهيبُ وَجْدٍ هَيَّجَتْهُ رَوْضَةٌ　　　من أَجْلِها حُلَّتْ من الصبر القوى
بل زاد شوقي للحبيب ورَامَةٍ　　　والأَبْرَقَيْنِ وما لمنعرجٍ (١) لوى

(١) رامة والأبرقان والمنعرج، مواضع بأرض الحجاز.

تـالله مـا شـوقي لـطِيبـةَ[1] بعـد مـا زُرْتُ الـحـبيبَ، وقـبـله، إلاَّ سِـوَا
أرضٌ أحبُّ إلى العــلاءِ من الـعُلى نَـزَلَ الـرسـولُ بهـا وفيهـا قـد ثَـوَى
يــا تــربــةٌ مــا مِثْلهــا من تُــرْبَــةٍ فيهـا الشفاءُ لكُـلِّ عـاصٍ ، والـدوا
يـا روضـةٌ[2] مـا مثلهـا من رَوْضــةٍ يـا سَعْـدَ مَنْ في جنـةِ المـأوى أَوَى
كم لي أنوحُ على الوصـولِ وعندمـا وَصَّـلْتِنِـي أَصْلَيْـتِنِـي نَـارَ الجـوى
فكــأنني الـظمــآن صــادف قــطرةً فتضاعف الظمأُ الشديـدُ وما ارتـوى
قسمــاً بِـطَهَ وهــو يــاسينُ الــذي قد جاء في النجم العظيم إذا هوى[3]
وبقـابِ قوسينِ الـذي هو قـد دنا[4] من ربــه، ذو مِــرَّةٍ ثم استــوى[5]
لأجـدِّدَنَّ نِيــاحَتِي بِسِيَــاحَتِـي أَسَفـاً على ذاك المقـام ومــا حـوى
حـتى أمــوت وإن أُمِـتُّ مُتيَّــراً[6] فلكــل عبـدٍ مُسلمٍ مــا قـد نــوى

وكما قال أبو مدين في البيت قبـل الأخير، ظـلَّ يجدِّد سيـاحاتـه بأرض الله، خـاشعـاً منجـذبـاً لأنـوار الحق تعـالى. لكنـه آخـر الأمـر، يعـود إلى المغرب. وكان لا بد له أن يعود، حتى يتلقى نبتاً سـوف يثمر، وينفـح مريـداً سوف يصير له الشأن العـظيم. ذلك النبت، وهـذا المريـد: مُحيـي الدين بن عربي.

تعلَّق ابن عـربي بشيخه، وظـل وفيًّا لـذكراه. وقـد حفظ لنا ابن عـربي الكثير من أقوال أبي مدين، كما أفاض في ذكر وقائعه وكـراماتـه، خاصـة في

---

(١) طيبة: من أسماء المدينة المنورة.
(٢) الإشارة إلى الروضة النبوية الشريفة.
(٣) سورة النجم (الآيتان: ١و٢): ﴿والنجم إذا هوى * ما ضَلَّ صاحبكم وما غوى﴾.
(٤) سورة النجم (الآية: ٩): ﴿فكان قاب قوسين أو أدنى﴾.
(٥) سورة النجم (الآيتان: ٦و٧): ﴿ذو مرة فاستوى، * وهو بالأفق الأعلى﴾..
(٦) المتير والموتور: الذي لم يقض مأربه.

كتبه: الفتوحات المكية ـ مواقع النجوم ـ محاضرة الأبرار. . فمما ذكره ابن عربي في «الفتوحات» قول شيخه أبي مدين: «ما رأيتُ شيئاً إلاَّ ورأيتُ الباءَ عليه مكتوبةً». وهي عبارة تشير إلى معانٍ عميقة عند الصوفية، فالباء هي الحرف الأول في البسملة، وهي أول ما ينطق به العبد عند تلاوته كلام ربه، ولذلك قال الصوفية: إن النقطة تمييز بين العابد والمعبود، وبالباء ظهر الوجود. وقد كان أبو بكر الشبلي يقول: «أنا النقطة التي تحت الباء» مشيراً إلى مقام التفرقة بين الله والعالم، تلك التفرقة التي يراها أبو مدين في كل شيء كما يظهر من عبارته. . وهذا هو عين التوحيد، حين يرى العبد حقيقة الواحد متجلية في كل ما سواه من مظاهر الوجود، كما قال بعضهم: ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله فيه. . فهو تعالى، حقيقة كل الأغيار المتفرقة. وإلى هذا المعنى أشار أبو مدين في أبياتٍ تقول: **[الكامل]**

فإذا نَظَرْتَ بعينِ عقلكَ لم تجدْ ... شيئاً سواه على الذوات مُصَوَّرا
وإذا طلبتَ حقيقةً من غيره ... فبذَيْلِ جَهْلِكَ لا تزال مُعَثَّرا

وهو ينوِّع نفس النغمة التوحيدية، فيقول في أبياتٍ أخرى: **[الكامل]**

اللَّهُ رَبِّي لا أُريدُ سواهُ ... هل في الوجودِ الحيِّ إلاَّ اللَّهُ
ذات الإلّه بها قِوَامُ ذواتنا ... هل كان يوجدُ غَيْرُهُ، لَوْلاَهُ

ومما ذكره ابن عربي عن شيخه، تلك العبارة اللطيفة التي يقول فيها أبو مدين: المريد، مَنْ يجد في القرآن ما يريد! وهي إشارة إلى أن القرآن الكريم هو مرتع الصوفي المبتدىء، فإذا قرأ المريد الصوفي القرآن بعين قلبه وبصيرته وجد فيه ما يشفي صدره ويردُّ على كل ما يطرأ على عقله. . كما تشير العبارة إلى منهج أبي مدين في تربية المريدين، وهو منهج يقوم على

الشريعة أولاً، ثم يصل بالشريعة إلى الحقيقة. وبهذا النهج الواضح القويم، تخرَّج في مدرسة أبي مدين الصوفية العديد من التلاميذ الذين بلغوا أعلى المراتب الصوفية، ويقال: إن عددهم يصل إلى الألف، ومن هنا لُقِّب أبو مدين بلقب شيخ الشيوخ.

وفي مرحلة متقدمة من حياته، ترك أبو مدين الدنيا بأسرها وراء ظهره. وصار يعيش كالطير التي يدبِّر الله قوتها يوماً بيوم، مصداقاً لقوله ﷺ: «لو اتقيتم الله حق تقاته لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً وتعود بطاناً» وفي هذا المقام، ترك أبو مدين الحرفة التي كان يعمل بها، وجلس مع الله على الفتح مرتزقاً بما يرسله الله أولاً بأول. فاعترض بعضهم عليه، لأن الصوفية كانوا دائماً أصحاب حرف ومهن، وليس من المعتاد عند مشايخ الطريق ترك التكسب بالعمل. ولنترك ابن عربي يروي ما جرى:

«فقيل له: يا أبا مدين، لِمَ لا تحترف؟ أو لِمَ لا تقول بالحرفة؟ فقال: أقول بها.. فقيل له: فلِمَ لا تحترف؟ فقالَ: الضيف عندكم إذا نزل بقومٍ وعزم على الإقامة، كم توقيت زمان وجوب ضيافته؟ قالوا: ثلاثة أيام، وبعدها يحترف ولا يقعد عندهم حتى يحرجهم! قال أبو مدين: الله أكبر، أنصفونا! نحن أضياف ربنا تبارك وتعالى، نزلنا عليه في حضرته على وجه الإقامة، فتعيَّنت الضيافة، وأيام ربنا كما قال: «كل يوم كألف سنة مما تعدُّون» فضيافته بحسب أيامه، فإذا أقمنا عنده ثلاثة آلاف سنة ولم نحترف، يتوجَّه اعتراضكم علينا..» ثم يعقِّب ابن عربي قائلاً: «فانظرْ في هذا النَّفس، إن كنت منهم!».

هكذا تفرَّغ أبو مدين تماماً لتربية المريدين، ولم ينشغل بأمر آخر. وتوافد عليه الأتباع، وانتشر أمره في بلاد المغرب، وصار يخرج على يديه الصوفية والأولياء الذين لقَّنهم قواعد الطريق إلى الله؛ ومن بين تلاميذه

الألف، كان محيي الدين بن عربي الذي أوردنا بعض حكايات أبي مدين التي ذكرها في مؤلفاته.. ولقد راجعتُ «الفتوحات المكية» فلم أجد سِفْراً من أسْفَارها السبعة والثلاثين، يخلو من ذكر الشيخ أبي مدين بشكل أو بآخر، ويبدو أن ابن عربي كان يريد أن تحلَّ بركات أبي مدين على جميع أسْفار الفتوحات.

وبدأ الصدام بين أبي مدين والحكام، كما يحدث بين الصوفية وأرباب الحكم الدنيوي. وهي مسألة متكررة الوقوع في تاريخ الإسلام، ربما نخصِّص لها ـ قريباً ـ بحثاً مفرداً يتناول «العلاقة بين الصوفية والحكام» إذ هي علاقة دقيقة ومتشعِّبة، تقتضي وقفةً طويلة.. المهم الآن، أن بعض الفقهاء سخطوا على أبي مدين وصيته الذي ذاع، فوشوا به، ودسُّوا عليه عند سلطان الموحِّدين «يعقوب المنصور» وقالوا له، بحسب رواية المؤرخين: إنا نخاف منه على دولتكم، فإن له شبهاً بالإمام المهدي، وأتباعه كثيرون في كل بلد..

ويصوِّر لنا ابن عربي تلك الفتنة في قصة رمزية يرويها بأسلوبه الخاص، جاعلاً لرموزه الصوفية دلالة بعيدة.. فيقول في الفتوحات:

«ذهبتُ أنا وبعض الأبدال إلى جبل (قاف) فمررنا بالحية المحدقة به، فقال لي البَدَل: سَلِّم عليها، فإنها سترِدُّ عليك السلام! فسلَّمنا عليها، فردَّت ثم قالت: من أيِّ البلاد؟ فقلنا: من بجاية. فقالت: ما حال أبي مدين مع أهلها؟ فقلنا لها: يرمونه بالزندقة. فقالت: عجباً والله لبني آدم، والله ما كنت أظن أن الله عز وجل يوالي عبداً من عبيده، فيكرهه أحد.. فقلنا لها: ومن أعلمك به؟ فقالت: يا سبحان الله، وهل على الأرض دابةٌ تجهله، إنه والله ممَّنِ اتخذه الله تعالى وليًّا، وأنزل محبته في قلوب العباد، فلا يكرهه إلا كافرٌ أو منافق..

ونعـود لمـا جـرى مـع أبي مـدين في محنتـه هـذه، لنـرى كيف انتهت المحنة بوفـاة أبي مدين الغوث. . يقول المقري في تـاريخه «نفـح الطيب»: إن يعقوب المنصور اهتم بأمر الشيخ، وأرسل في طلبه ليختبره، وأمـر صاحب بجاية بأن يُحمل الشيخ إليه. كان أبو مدين آنذاك قد تقدَّم في السِّنِّ، والسفر يشق عليه، فسخط مريدوه وغضبوا من هذا الاستدعاء. فأسكتهم الشيخ وقال لهـم: «إن منيتي قربت، ولغير هذا المكان قُـدِّرت أن أموت، ولا بـد لي منه، وأنـا شيخ كبيـر ضعيف لا قدرة لي على الحـركة، فبعث الله من يحملني إلى حيث أموت برفق، لكني لن أرى السلطان ولن يـراني» فلما سمـع المريـدون منه ذلك، طابت نفوسهم، وارتحلوا به إلى السلطان على خير محمل. .

وبينمـا هم في الطريق، ظهـرت من بعيد رابـطة صوفيـة تسمى «رابـطة العُبَّـاد» فقال أبـو مدين لأصحـابه: مـا أصلح المكان للرقـاد! ومرض مـرضـاً شديداً، وظل يردد «الله، الله» فكان آخر كلامه: الله الحق. . وحملوا جثمـانه ليدفنوه في «العُبَّاد» مدفن الأولياء، ولم يَرَ السلطان(١).

* * *

تـرك أبو مـدين الغوث كتـاباً واحـداً هو «أُسّ التـوحيد» بـالإضـافـة إلى مجموعة من القصائد الصوفية التي جمع الدكتور: عبد الحليم محمـود بعضها في كتابه اللطيف عن أبي مدين. . وأشهر تلك القصـائد، هي تلك القصيـدة التي شـرحها حكيم الصـوفية «ابن عـطاء الله السكندري» وقـام الشيخ الأكبـر «ابن عربي» بتخميسها. تقول القصيدة: **[البسيط]**

مـا لذةُ العَيْش إلا صُحْبَـةُ الفقـرا(٢)	هم السـلاطين والسـادات والأُمـرا
فـاصحبهُمُ وتـأدَّبْ في مجـالسهم	وخَـلِّ حـظَّك مهمـا قـدَّمـوك وَرَا

(١) قارن واقعة وفاة أبي مدين، بوقائع وفاة كل من: نجم الدين كبرى ـ الششتري!
(٢) الفقراء: الصوفية من أهل الطريق.

واستغنم الوقتَ واحضرْ دائماً معهم | واعلمْ بأن الرضا يختصُّ مَنْ حَضَرا
ولازم الصمتَ إلا إن سئلت فقل | لا علمَ عندي وكن بالجهلِ مُسْتترا
ولا تَرَ العيبَ إلا فيك مُعتقدا | عيباً بدا بيِّنا لكنه اسْتَتَرا
وحُطَّ رأسكَ واستغفرْ بلا سببٍ | وقُمْ على قَدَمِ الإنصاف مُعتذِرا
وإن بدا منك عيبٌ فاعترف وأَقِمْ | وَجْهَ اعتذارك عما فيك منك جَرَى
وقُلْ عُبَيْدُكُمُ أولى بِصَفْحِكُمُ | فسامحوا وخذوا بالرفق يا فُقَرَا
هُمْ بالتفضُّلِ أولى وهو شِيمتهمْ | فلا تَخَفْ دَرَكاً منهمْ ولا ضَرَرا
وبالتغنِّي على الإخوان جُدْ أبدا | حِسًّا ومعنًى، وغضَّ الطرف إن عَثَرا[1]
وراقب الشيخ في أحواله فعسى | يُرَى عليك من استحسانه أَثَرا
وقَدِّم الجهد وانهضْ عند خدمته | عساه يرضى، وحَاذِرْ أن تُرَى ضَجِرا
ففي رضاه رضا الباري وطاعته | يرضى عليك فكُنْ من تَرْكِهِ حَذِرا
واعْلَمْ بأن طريق القوم دَارِسَةٌ[2] | وحالُ مَنْ يَدَّعيها اليومَ كيف تَرَى[3]
مَتَى أراهُمْ وأَنَّى لِي برؤيتهم | أو تسمع الأُذْنُ مِنِّي عنهُمُ خَبَرا
مَنْ لِي وَأَنَّى لمثلي أن يزاحمهم | على مواردَ لَمْ آلفْ بها كَدَرا
أُحبهُمْ وأُداريهمْ وأُوثرهُمْ | بمهجتي وخصوصاً منهُمُ نَفَرا[4]
قومٌ كرامُ السجايا، حيثما جلسوا | يبقى المكانُ على آثارهمْ عَطِرا
يهدي التصوف من أخلاقهم طَرَفا | حُسْنُ التآلف منهم راقني نَظَرا
هم أهلُ وُدِّي وأحبابي الذين هم | ممَّنْ يجرُّ ذيولَ العزِّ مُفْتَخِرا
لا زال شَمْلِي بهمْ في الله مُجْتمعا | وَذَنْبُنَا فيه مغفوراً ومُغْتَفَرا
ثُمَّ الصلاة على المختارِ سيِّدنا | محمدٍ خير مَنْ أوفى ومَنْ نَذَرا

* * *

(١) يقصد: أن يغض الصوفي طرفه عن عثرات إخوانه في الطريق، فلا يلومهم ويترفق معهم.
(٢) دَارسةٌ: منطمسة. والمعنى المراد: إن طريق الصوفية يكاد ينمحي ويغيب.
(٣) الإشارة إلى ما يلقاه أهل الطريق من مصاعب ومحن على يد أهل الزمان.
(٤) الإشارة إلى خواص الأولياء المعروفين اصطلاحاً بالواصلين.

بالإضافة إلى ما ذكره ابن عربي عن أبي مدين في مؤلفاته التي ذكرناها فيما سبق، يمكن الرجوع إلى المزيد من ترجماته في:

التشوف لابن الزيات ـ سلوة الأنفاس للكتاني ـ أنس الفقير لابن قنفذ ـ روض القرطاس لابن أبي زرع ـ نفح الطيب للمقري ـ شذرات الذهب ـ عنوان الدراية للغبريني ـ نيل الابتهاج.

ومن البحوث المعاصرة: أبو مدين الغوث للدكتور: عبد الحليم محمود، أبو مدين وابن عربي للدكتور: عبد الرحمن بدوي، مقالة «أبو مدين» بدائرة المعارف الإسلامية.

رشيدُ الدين بن خَليفة

(المتوفى ٦١٦ هجرية)

هِيَ الدُّنْيَا فَلَا تَغْتَرَّ مِنْهَا بِشَيْءٍ، إِنَّهُ عَرَضٌ يَزُولُ
[الوافر]

هذا الرجل لا نجد له ذكراً في المراجع والمصادر الخاصة بتاريخ التصوف، وإنما نجده في مصادر تاريخ العلوم العربية! والسر في ذلك، أن شهرته في الكحالة (طب العيون) غطت على كونه صوفيّاً وشاعراً.

والترجمة الوحيدة الوافية لرشيد الدين بن خليفة، وضعها ابن أخيه المؤرخ المشهور موفق الدين بن أبي أُصيبعة في كتابه (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) ومن خلال هذه الترجمة، نتعرف على تصوف رشيد الدين وشعره.

في الوقت الذي عاش رشيد الدين فيه، كانت مصر والشام دولة واحدة يحكمها الأيوبيون. وفي ظل هذه الدولة عاش خليفة بن يونس بن أبي القاسم الخزرجي، وأنجب ولديه القاسم وعلي.. وصارا من أطباء العيون، وخدما بالطب في بلاط السلاطين الأيوبيين. وكان (القاسم) مقتصراً على الطب، وكذلك صار ابنه موفق الدين صاحب عيون الأنباء.. أما (عليّ) المكنى برشيد الدين، فقد جمع بين عدة علوم.

بدأ رشيد الدين الاشتغال بالعلم على يد العلامة أبي التقي العرشي، فحفظ القرآن وأتقن علم الحساب. ثم تعلّم الطب على يد رئيس الأطباء

جمال الدين بن أبي الحوافر، وتخصَّص في طب العيون على يد القاضي نفيس الدين الزبير. وتلقى الفلسفة وعلوم اللغة من موفق الدين عبد اللطيف البغدادي، الذي كان صديقاً لوالده. كما تعلَّم الفلك من ابن الجعدي، والموسيقى من ابن الديجور وصفي الدين التبان.. وهكذا صار الرجل موسوعة.

ويبدو أن هذه العلوم التي احتشدت برأس رشيد الدين لم تكفه.. فها هي طموحاته تحلّق بأجنحة خرافية الروعة، وها هي روحه تطلب من الحقائق ما يعز وجوده، وها هو اليأس من الظاهر وعلومه يصدمه. فيقول: **[الطويل]**

ثلاثون عاماً من حياتي مضتْ وما ... يئستُ ولا نُولت بعض مطالبي
تعاندني الأيام عمداً وإنَّني ... صبورٌ على البلوى منيعُ الجوانبِ
تقربت من حظي بكل فضيلة ... وفضلٍ فجازاني بضيق المذاهبِ
ألا إن يأس النفس أوفق للفتى ... وأطيب من نجوى الأماني الكواذب

وكان لا بد لهذا النزوع اليائس من الأيام، أن يقف بصاحبه على أعتاب التشوف، ويدخل به إلى عالم التصوف.. التصوف الذي وصفه الأوائل بأنه: الإقبال على الخالق، واليأس مما بأيدي الخلائق.

وعاش رشيد الدين بن خليفة بعقل طبيب وقلب متصوف، ولم تنته حياته إلا وقد لبس (خرقة الصوفية) وهي علامة الدخول التام في الطريق الصوفي. يقول ابن أبي أصيبعة: واجتمع عمي في دمشق بالسيد شيخ الشيوخ صدر الدين بن حمويه، وألبسه خرقة التصوف، وكتب له معها:

«هذا ما أنعم به المولى السيد الأجل، الإمام العالم، شيخ الشيوخ.. ابن حمويه، أدام الله تأييده، من إلباس خرقة التصوف على مريده: عليّ بن

خليفة بن يونس الخزرجي الدمشقي، وفقه الله إلى الطاعات. . وكان لباسه الخرقة، أعاد الله عليه من بركاتها، وعلى جميع مَنْ تشرف بها، في العشرين من شهر رمضان سنة خمس عشرة وستمائة بدمشق المحروسة».

ولرشيد الدين مجموعة من المأثورات الذوقية، أهمها جميعاً وصيتان:

[وصية أول النهار]

«قد أقبل هذا النهار وأنت فيه مهيأ لكل فعل، فاختر لنفسك أفضلها لتوصلك إلى أفضل الرتب، وعليك بالخير فإنه يقربك من الله ويحببك إلى الناس. وإياك والشر، فإنه يبعدك عن الله ويبغضك إلى الناس. وافعل ما تحاسب نفسك عليه عند انقضاء هذا النهار. والحذر من أن يغلب شرك على خيرك. وليس الفاضل من بقي على حالة الطبيعة مع عدم المؤذيات، بل الفاضل من بقي عليها مع وجود المؤذيات. والانقطاع عن الناس أكبر مانع للأذى. واقبل وصايا الأنبياء، واقتد بأفعال الحكماء. وعليك بالصدق، فإن الكذب يصغِّر الإنسان عند نفسه فضلاً عن غيره. واحلمْ تُشكر، وتفضَّلْ فإن الحقد يعجِّل الهم، ويوقع في العداوة والشرور، وكذلك الحسد. وتجنَّب الأشرار تُكفَ الأذى، وابعد عن أرباب الدنيا تُكفَ الأشرار. واقنعْ من دُنياك بما تدفع به ضرورة بدنك. واعلم أن نهارك هذا قطعة تذهب من حياتك، فانفقها فيما يعود عليك نفعه. وإذا اندفعت ضرورة بدنك، فاقض باقي نهارك في مصلحة نفسك، وافعل بالناس ما تشتهي أن يفعلوه بك. وإياك والغضب والمبادرة إلى الانتقام من المُغضب أو الانفصال عنه، فإنه ربما وقع في الندم. وعليك بالصبر، فإنه رأس كل حكمة».

[وصية أول الليل]

«قد انقضى نهارك بما فيه، وأقبل عليك هذا الليل. وليس لك فيه فعلٌ بدنيٌّ ضروريٌّ، فاعطف على مصلحة نفسك بالاشتغال في العلم، والفكر

في الاطلاع على الحقائق. ومهما استطعت اليقظة في الليل فافعل، فإذا أردت النوم فاجعل في نفسك ملازمة ما أنت فيه، لتكون رؤياك من هذا الجنس. وافعل ما تحاسب نفسك عليه عند الصباح. واحرص أن تكون في غدك أفضل من يومك المُنقضي. وإياك أن تجذبك الطباع إلى الفكر فيما عاينته في نهارك من أحوال أرباب الدنيا، فتضيِّع وقتك، وتنفتح لك أبواب الخداع والحيل والمكر في تحصيل أمور الدنيا، وتظلم نفسك، وتُفسد حالك، وتبعد عن الحقائق، وتكتسب الأخلاق المذمومة، ويعسر تخلصك منها. لكن اعلم أن هذه أعراضٌ زائلة، وأن ضرورات الإنسان قليلة جدًّا، وفكِّر فيما يعود على نفسك نفعه. وتهيَّأ للقاء الله، فإن علمك بموتك متى يكون، مستور عنك، وما جاءك في أن يأتي يوم آخر عليك، أقوى من وهمك أن تموت هذه الليلة، فودِّع بالثبات على ما تنتفع به بعد المفارقة».

وإذا تأملنا هاتين الوصيتين، نجد العديد من الإشارات الباطنة لمجموعة المفاهيم الإسلامية التي يتعلق بها المتصوفة، كالاقتداء بالأنبياء والحكماء، وضرورة الاشتغال بالعلم والتفكر، ووضع الموت نصب العين.. كما نجد في الوصيتين تأكيداً لأحوال الصوفية ومقاماتهم، كالمحاسبة، والخلوة والانقطاع عن الناس، والصدق، والحلم، واحتمال الأذى، والسهر، والزهد، والصبر.. وكلها أحوال ومقامات، أفاض أهل الطريق الصوفي في شرحها والتنبيه إليها، باعتبارها مراتب ودرجات في السلم الروحي الصاعد من الخلق إلى الحق تعالى.

وفي سنة ٦١٦ هجرية، وصل إلى رشيد الدين بن خليفة استدعاء من الملك الصالح، ليتوجه إلى مدينة بصرى (وهي بلدة بحوران) كي يعالج والدته، ويحد من خطر وباء عظيم انتشر هناك. فلبى رشيد الدين، وذهب لعلاج والدة الملك، فشفيت في مدة يسيرة. وأنعموا عليه هناك بالذهب

والخلع النفيسة، لكنه لم يستمتع بتلك النعم. . فقد عرضت له حمى حادة، فرجع إلى دمشق مريضاً، ولم يزل المرض يشتد عليه، حتى توفي في شهر شعبان من هذه السنة، وهو لم يتعد الثامنة والثلاثين من عمره.

وعلى الرغم من الحياة القصيرة التي عاشها رشيد الدين، فقد ترك بعد وفاته مجموعة من المؤلفات المهمة، منها: الموجز المفيد في علم الحساب ـ كتاب في الطب وأموره الكلية ـ كتاب طب السوق ـ مقالة في نسبة النبض وموازنته إلى الحركات الموسيقية ـ كتاب الاسطقسات ـ تعاليق ومجربات طبية. . أما في الشعر الصوفي، فله مجموعة أبيات تذوب رقة. فمن أبياته التي يشكو فيها تباريح وجده: **[الكامل]**

يا صاحبيَّ سَلا الهوى وذَراني ... ماذا [تريدا] من مَشُوقٍ عَانِي
لا تَسْألاه عن الفراق وطعمه ... إن الفراق هو الممات الثاني
نادى الحداةُ[1] دنا الرحيلُ فودِّعوا ... ففُجعتُ في قلبي وفي خِلَّاني
وسرتْ ركائبهم وقد غسق الدجى ... فأضاء ممَنْ سار في الأظعان[2]
ما كنتُ أعلم أن بُعدك قاتلي ... حتى فعلتَ وغرَّني سلواني
وبكيت وجدا بعد ذاك فلم أجدْ ... أنَّى وقد صار اللقاءُ أماني؟

وبعد هذه البكائية الرقيقة، يتبدل الحال. . فنرى رشيد الدين وهو يصف بهجة مجلس صوفي اجتمع فيه أهل العلم والفضل بمدينة بعلبك:

[المنسرح]

سقياً ليوم تمَّ السرور بنا ... فيه وكأس الشَّمول[3] تجمعنا

(١) الحداة: مرشدو طريق الإبل عند سفرها في الصحراء، وهو هنا إشارة إلى اقتراب موعد الرحيل.
(٢) الأظعان: المفرد (ظعن) وهو الهودج الذي يكون فوق الإبل.
(٣) الشمول: الخمر. . وهي هنا رمز للنشوة بصحبة الأخيار.

والـدهـر ولَّت عنَّـا حـوادثـه ... ونـحـن فـي لـذَّة ونـيـل مُـنى
بمجلس كـامـل المحـاسن لـو ... بـه يحـلُّ الجُنَيْـدُ[1] لافتتنـا
فـكـاهـةٌ بـيـنـنـا وفـاكـهـةٌ ... وكـأس راحٍ وراحـة وغِـنـا
بين نـدامى مثـل الشمـوس لهم ... عـلمٌ وفـضـل ورفـعـة وسَـنـا
حـديثهـم لا يمـلّ سـامعـه ... لـطيبـه العينُ تـحسـدُ الأذنـا
إخـوانُ صدقٍ صفت ضمـائـرهم ... أولـو عفافٍ لا يضمـرون خنـا[2]
أهـلُ سمـاحٍ مـا إن يـزال لهم ... صنـع لـه في الأنـام طيب ثنـا
نُـنشـدُ أغـزالـنـا ونُـلغـزهـا ... بـاسم غـزالٍ أضحى يغـازلنا
في يـوم دَجْنٍ[3] تهمي سحـائبه ... كـأنـهـا كـفُّ ربِّ مـنـزلـنـا
وعـنـده مـنـقـل تـلألأ فـي ... أرجـائـه النـارُ فهـي تـدفِّئنـا
تـجـاهـه شـادن وفـي يـده ... طيـرٌ كصبٌّ لـديـه ذاب ضَنـا
كـأنـه إذ غـدا يـقـلِّبـه ... في النـار قلبي الـذي قـد ارتهنا
ظـلت كـؤوس الـمـدام طـاردةً ... لـلهمِّ حيث الـسـرور ذكَّـرنـا
نُسِـرُّ مـا بيننـا الـحـديث ولا ... نبـديـه خـوف الـوشـاة تسمعنا
فمـا تـرانـا عينٌ لـذي بصـر ... إلا عيـون الحبـاب تَـرْمقنـا
وأطيب الـعـيش مـا نـكـتِّمـه ... خـوفـاً وإن كـان سِـرُّنـا عَلَنـا
يـا يـومنـا هـل نـراك ثـانيـةً ... بـبـعـلبـك أم تـعـود لـنـا

ومرة أخرى، يستبد الوجد بقلب المحب، فينوح على بُعد الأحبة مشيراً إليهم ـ على طريقة الصوفية ـ بسكان نجد.. فيقول: **[الطويل]**

---

(١) الجنيد: هو أبو القاسم بن محمد الخزاز القواريري، المتوفى ٢٩٧ هجرية.. من كبار مشايخ الفقه والتصوف، كان يلقب: شيخ الطائفة.
(٢) الخنا: الفسق والفجور.
(٣) الدجن: الظلام.

أسفتُ وما يجدي التأسفُ والوجدُ ونُحتُ على نجدٍ وقد أقفرت نجدُ
وسار بمن أهوى الركابُ وأدمعي تفيض وقالوا مُتْ فهذا هو الفقد
حُرمتُ لذيذَ العيش بعد فراقه وبالرغم مِنّي أن يطول به العهد

ثم يجمع رشيد الدين بين الوصل والهجر في أبيات يشرح فيها ألم الهجر بعد الوصل، وكيف يفتضح المحب بدمعه، ثم يسأل المحبوب أن يرحم قلبه. . فيقول: [الكامل]

سِرُّ المحب بدمعه إعلانُ فمتى يكون مع الورى كتمانُ
أرأيتما يا صاحبيّ فتىً تذلُّ له الأُسودُ تذلُّه الغزلانُ
ما كنتُ ممَنْ يسترقُّ فؤاده عشقاً ولكنَّ الهوى سلطانُ
هل ترحمُ الصَّبَّ الكئيبَ بزورةٍ يا مَنْ جميع فعاله إحسانُ
تلقى فتىً رحبَ الفنا ذا عفةٍ طلقَ المُحيَّا قلبُهُ وَلْهَانُ

* * *

الترجمة الوحيدة لرشيد الدين بن خليفة، ومقتطفات من شعره، توجد في الجزء الأخير من (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) لابن أبي أُصيبعة.

نجم الدين كُبْرى
(المقتول ٦١٨ هجرية)

الشريعةُ كالسفينةِ، والطريقةُ كالبحرِ، والحقيقةُ كالدُّرِّ.

.. والآن، جاء أوان الوقوف عند صوفي عارم، اخترق المراحل الممتدة من الخلق إلى الحق، محلقاً في سماء الولاية بأجنحة أسطورية الروعة. فصار متفرداً في طيرانه، متجرداً عن أكوانه.. وظل على أعتاب الباب الإلّهي حتى تجرَّع مُرَّ الصبر، فانفجر بالعشق. فكان في حياته ووفاته، طامة كبرى.

هو الإمام العلامة القدوة المحدث الشهيد، شيخ خُراسان ونجم الكبراء، أحمد بن عمر بن محمد الخوارزمي الخيوقي.. المعروف بنجم الدين أبي الجنَّاب الكُبرى. قال المؤرخون: الخيوقي نسبةً إلى (خيوق) إحدى قرى خوارزم، والكُبرى نسبةً إلى (الطامة الكبرى) حيث كان في صغره يسبق أقرانه في فهم غوامض المشكلات، وكانت له الغلبة دائماً في المناظرات، فلقَّبوه بالطامة الكبرى. ثم كثر الاستعمال، فحذفوا كلمة (طامة) وبقيت (كبرى) تُشير إليه.

بدأ نجم الدين حياته بدراسة علوم الدين، خاصة علم الحديث، وخرج من بلدته خيوق لطلب العلم، فسافر إلى همذان ومنها إلى مصر، وفي الإسكندرية أتم دراسته لعلم الحديث النبوي، فرجع إلى بلدته.. وفي ليلة

رائقة، رأى في المنام أنه أمام النبيّ ﷺ فطلب منه أن يحدِّد له كُنية يُعرف بها.. فقال: أنت أبو الجناب! قال نجم الدين: مخفَّفة أم مشدَّدة؟ فقال: بل مشدَّدة.. فأدرك نجم الدين كبرى أن تلك الرؤيا هي إشارةٌ سماوية لاجتناب زخارف الحياة، وأمرٌ بالتجرد وبسلوك طريق الصوفية. وقد أشار بعضهم إلى تلك الواقعة بقوله:

قد قال له رسولنا في الرؤيا إذْ شاهده، أنتَ أبو الجناب(١)

وخرج نجم الدين مرة أخرى من موطنه، ليطلب هذه المرة علوم الحقائق.. وبحث عن شيخ يرشده في الطريق، فالتقى في الأهواز بالشيخ إسماعيل القصري، وصحبه مدة، ثم أشار إليه بصحبة الشيخ عمار بن ياسر، الذي أشار إليه بدوره إلى نزول مصر للقاء الشيخ الكبير روزبهان البقلي(٢).. وكانت لنجم الدين في صحبة هؤلاء المشايخ وقائع وطرائف وكرامات، يضيق المقام هنا عن التعرض لها. وقد كان نجم الدين كثير الإشارة إلى فضل مشايخه، فكان يقول: أخذتُ علم الطريقة عن روزبهان، والعشق عن ابن العصر، وعلم الخلوة والعزلة عن عمار، والخرقة عن إسماعيل القصري.

واستقر المقام بنجم الدين بخوارزم، وأقام بها رباطاً صوفياً،اجتمع فيه المريدون.. يقول الذهبي في (سير أعلام النبلاء) ما نصه: وصار نجم الدين شيخ تلك الناحية، وكان صاحب حديث وسنة، ملجأ للغرباء، عظيم الجاه، لا يعرف في الله لومة لائم.

---

(١) ورد هذا البيت في العديد من المصادر الخاصة بنجم الدين كبرى، والراجح أنه مترجم عن الفارسية، وهو غير موزون على البحور العربية.

(٢) الشيخ روزبهان البقلي الفارسي، المعروف بلقب (شطَّاح فارس) من أعمق صوفية الفرس. عاش فترة طويلة من حياته في الإسكندرية والقاهرة، حتى عرف باسم روزبهان المصري.. ترك عدة رسائل صوفية، وكانت وفاته سنة ٦٠٦ هجرية.

وعلى يديه، تخرج العديد من مشاهير الصوفية الذين نالوا بعد ذلك مكانة صوفية متميزة، حتى سُمي من كثرة تلاميذه النابغين (صانع الأولياء!!) ومن هؤلاء التلاميذ اشتهر: فريد الدين العطار، مجد الدين البغدادي، سيف الدين الباخرزي، سعد الدين الحموي، كمال الدين الخجندي، نجم الدين الرازي، بهاء الدين الرومي والد مولانا جلال الدين صاحب المثنوي.

وكان نجم الدين معاصراً لفخر الدين الرازي، الفقيه والمتكلم العظيم الشأن.. وتروي المصادر العديد من وقائع لقائهما، ومنها تلك القصة التي يذكرها طاش كبرى زاده: «سمعتُ رجلاً ثقة عالماً عابداً زاهداً.. أنه حكى أن الإمام الرازي لما دخل هُراة، أتاه مَنْ بها من العلماء والصلحاء والسلاطين والأمراء، وسأل يوماً: هل بقي أحدٌ تخلَّف عن زيارتنا؟ فقال أصحابه: نعم، بقي رجلٌ صالح منقطع في زاوية! قال الرازي: أنا رجل واجب التعظيم، وأنا إمام المسلمين، فلماذا لم يزرني؟ فقالوا لذلك الرجل كلام الإمام الرازي، فما تكلم بشيء أصلاً، ووقع بينهما الخلاف. فصنع أهل البلدة طعاماً، فدعوهما، فأجابا الدعوة، واجتمعا في حديقة. وسأله الإمام عن سبب تخلفه عن زيارته فقال: أنا رجلٌ فقير لا شرف في زيارتي، ولا نقصٌ في تخلفي عنها! قال الإمام: هذا جواب أهل الأدب (يقصد الصوفية) فقل لي حقيقة الحال.. فقال الرجل: لأي شيء وجبت زيارتك؟ قال: أنا إمام المسلمين، وواجب التعظيم! قال: إن افتخارك هو بالعلم، ورأس العلوم معرفة الله تعالى، فكيف عرفته عز وجل؟ قال: بمائة من البراهين.. قال الرجل: البرهان لإزالة الشك، والله تعالى جعل في قلبي نوراً لا يدخل معه الشك، فضلاً عن الحاجة إلى البرهان. فأثر هذا الكلام في قلب الإمام الرازي،

فتـاب في ذلك المجلس على يـديه ودخـل الخلوة. . قال النـاقل للحكـايـة: «وكان ذلك الرجل هو الشيخ أبو الجناب نجم الدين الكبرى قدس الله سره».

وترك نجم الدين عدة مؤلفات، منهـا: رسالـة الخائف الهـائم من لومـة اللائم ـ فواتح الجمال وفوائح الجلال ـ منازل السـائرين ومنهـاج السالكين. . وهي مؤلفات صوفية رائعة، نالت عند أهل الطريق مكانةً متميـزة، حتى قيل: إن رسـالته (الخـائف الهائم) لم يؤلَّف في علم الـطريقة مثلهـا. ولكي نتعرَّف على أسلوب نجم الـدين، نقرأ هـذه الفقرة من كتـابه (فـواتح الجمـال) الذي نشره المستشرق فريتز ماير، وطُبع في فِسْبَادِن سنة ١٩٥٨. . يقول الشيخ:

«الولاية إنما تتم في الدرجة الثالثة للسيَّار. الدرجة الأولى التلوين، والدرجة الثانية التمكين، والدرجة الثالثة التكوين. . أو نقول: الدرجة الأولى العلم، ثم الحالة، ثم الفناء عن الحالة في المحوِّل. أو نقول: الدرجة الأولى مشاهدة الصور، ثم مشاهدة المعاني، ثم الفناء عن المعاني في معنى المعاني. أو نقول: التجريد، ثم التفريد، ثم التوحيد. أو نقول: علم اليقين، ثم حق اليقين، ثم عين اليقين. . فعلم اليقين مكتسب، وحق اليقين حالة، وعين اليقين فناء. أو نقول: العبادة ثم العبودية ثم العبودة. أو نقول: طلب العبد، ثم قبول الحق للعبد، ثم الفناء في الحق. أو نقول، كما قال الحسين بن منصور (الحلاج): قطع العلائق، ثم الاتصاف بالحقائق، ثم الفناء عن الحائق في حق الحقائق، أو نقول: التعبد، ثم العبودية، ثم الحرية. أو نقول: التذكر، ثم الذكر، ثم الاستغراق في المذكور. أو نقول: عبارة، ثم إشارة، ثم غيب. أو نقول: حضور، ثم غيبة، ثم إحضار ـ أو نقـول: شهـود، ثـم غيبـة، ثـم إشهـاد ـ التخلي، ثـم التجلي، ثـم التولي. . واللّه يتولى الصالحين».

كمـا يذكـر المؤرخون أن الشيـخ وضـع تفسيـراً للقـرآن في اثني عشـر مجلداً، ومع كثرة الإشارة لهذا التفسيـر في المصادر التـاريخية؛ إلا أنـه اليوم

مفقود، ولا توجد منه مخطوطات معروفة[1].

وهناك نزاع حول حقيقة مذهب نجم الدين كبرى، ذلك أن مؤرخي الشيعة يصرون على أنه من الشيعة الإمامية الاثني عشرية ـ الذين يقولون بإمامة اثني عشر رجلاً من نسل عليّ بن أبي طالب ـ فنجد الخوانساري في (روضات الجنات) يؤكد مذهبه الشيعي الإمامي استناداً إلى عدد تلاميذه، فيقول: «إن المرشدين على الحقيقة لما كانوا اثني عشر، هم أئمة مذهبه الحق الإمامي، فلا جرم أنه لم يصحب طول حياته من المريدين والمسترشدين إلا هذه العدة. .» ومن الناحية الأخرى، يؤكد مؤرخو السنة أنه كان سُنياً، فنرى ابن العماد الحنبلي في (شذرات الذهب) وابن نقطة في (التقييد) والذهبي في (سير أعلام النبلاء) يؤكدون أنه كان فقيهاً سُنياً على مذهب الإمام الشافعي. والحقيقة، فإن المنطقة التي عاش فيها نجم الدين، كانت في عصره منطقة سُنِّية، ولم تعرف المذهب الشيعي إلا في وقت متأخر. وبذلك، فلا عبرة بما رُوي عن العَطَّار من أنه «ذهب مع والده أيام الطفولة إلى الشيخ نجم الدين الكبرى، فلقَّنه أولاً أسماء الأئمة، ثم الذكر، وقال له: هذا التلقين عن شيخي، عن شيخه، إلى أمير المؤمنين عليه السلام، عن رسول الله ﷺ، عن جبريل، عن الله تبارك وتعالى، فلا تُظهر هذا السر إلا إلى مَنْ جرَّبته من المريدين!».

ونأتي لتلك اللوحة الأخيرة في حياة نجم الدين كبري، وهي أكثر لوحاته تفجراً وامتلاءً بالطابع الدرامي العنيف. . فقد اصطدم الشيخ بأعظم موجةٍ في العصور الوسطى الإسلامية (التتار) تلك الموجة التي انهارت معها الحصون والقلاع حتى انتهت بفاجعة لا مثيل لها في التاريخ الإسلامي

---

(١) بعد صدور الطبعة الأولى من هذا الكتاب، أخبرني الدكتور حسن عباس زكي ـ نائب رئيس وزراء مصر الأسبق ـ أن لديه نسخة من هذا التفسير في مكتبته الخاصة.

(سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هجرية) حيث كان التتار ناراً موقدة اندفعت من مشارق العالم الإسلامي لتأكل الأخضر واليابس، وكان المسلمون في المشرق ـ كما ذكر ابن تيمية في بعض رسائله ـ قد تسلط عليهم الخوف والرعدة، حتى إن الجماعة منهم كانوا يلقون المقاتل التتري ومعهم سيوفهم، وهو بلا سلاح، فتسقط من أيديهم السيوف ويذبحهم بها وهم ينتفضون من فرط الرعب.. وكان انكسار الموجة على يد مماليك مصر، أما بدء اندفاعها فكان بخوارزم، حيث كان نجم الدين يقيم وقد بلغ من العمر أكثر من ثمانين سنة. ولنترك ابن العماد يروي:

«استشهد الشيخ رضي الله عنه بخوارزم في فتنة التتار، وذلك أن سلطانها قال للشيخ وأصحابه (وكانوا نحو ستين): ارتحلوا إلى بلادكم، فإنه قد خرجت نارٌ من المشرق تحرق إلى قرب المغرب، وهي فتنة عظيمة ما وقع في هذه الأمة مثلها.. فقال بعضهم للشيخ نجم الدين: لو دعوت برفعها! فقال: هذا قضاءٌ محكمٌ لا ينفع فيه الدعاء. فقالوا له: أتخرج معنا؟ فقال: ارحلوا أنتم، فإني سأقتل ها هنا.

ولما دخل الكفار البلد، نادى الشيخ وأصحابه الباقون (الصلاة جامعة) ثم قال: «قوموا نقاتل في سبيل الله..» ودخل بيته، ولبس خرقة شيخه، وحمل على العدوّ فرماهم بالحجارة ورموه بالنبل، وجعل يدور ويرقص حتى أصابه سهم في صدره، فنزعه ورمى به نحو السماء، وفار الدم وهو يقول: إن أردت فاقتلني بالوصال أو بالفراق! ثم مات ودفن في رباطه، رحمه الله تعالى...»

.. وإنني لأتساءل أمام هذه اللحظة العارمة: هل أراد الشيخ بموته أن يحقق قَدَراً مكتوباً؟ أم أراد أن يضرب للمسلمين مثلاً في الاقتحام الذي آخره الشهادة؟ ولماذا كان الشيخ يرقص وهو يموت.. هل كان يحقق ذلك المعنى

الذي سيشير إليه مولانا جلال الدين الرومي من بعده، حين قال: لا يفنى في الله، مَنْ لم يعرف قوة الرقص!

وبعد وفاة نجم الدين كبرى، انتشرت طريقته المعروفة باسم (الكبروية) ببلاد فارس.. أما هو، فظل في صحراء خوارزم! فهناك، على ما أخبرني به الصديق جمال الغيطاني، يقف بقبره: وحيداً، مبتعداً، مجهولاً.

أما عن الشعر الصوفي! فقد ترك نجم الدين مجموعة من الرباعيات الدافقة، لا تزال بعدُ في أصولها الفارسية، ولم يترجم منها - فيما أعلم - أية أجزاء إلى اللغة العربية. ولسوف نقدم فيما يلي مجموعة متنوعة من تلك الرباعيات، مع ترجمة لها إلى العربية.. يقول الشيخ:

حاكمان در زمان معزولي همه شبليّ وبايزيد شوند
باز چون برسر عمل آيند همه چون شمر وچون يزيد شوند

وترجمة الأبيات[1]:

- الحكام في وقت عزلهم
- كلهم الشبلي وأبو يزيد
- وإذا عادوا لسلطتهم
- فكلهم مثل شمر ومثل يزيد

يريد نجم الدين هنا أن يقول: إن ذوي السلطة لا دوام لحالهم، ففي أوان ابتعادهم وإقصائهم عن الحكم، نجد زهاداً في الدنيا مثل الصوفية (أبو يزيد البسطامي، أبو بكر الشبلي..) فإذا حكموا مرة أخرى، نسوا ما مضى وصاروا من أهل الظلم والبطش أمثال شمر بن ذي الجوشن (قاتل الحسين في

---

(١) نسجل هنا آيات شكرنا للدكتور: إبراهيم الدسوقي شتا، على معاونته في ترجمة هذه الأبيات ووضع صياغة عربية لها.

كربلاء) ويـزيد بن معـاوية الّـذي نكّل بـآل بيت النبوة. . وهي في مجملهـا، إشارةٌ لتلاعب خمـر السلطة بعقول البشـر. وفي أبيات أخـرى، يصف الشيخ حال الإنسان المعدم، فيقول:

گــر جهـودي قــراضـة أي دارد خواجـهٔ نـامـدار وفـرزانـه است
وانـكــه دين دارد ونــدارد مــال كر همه بوعلي است ديوانه است

وتـرجمتـهـا:

ـ لو أن يهودياً لديه فتات مال
ـ فهو يكون السيد والوجيه
ـ ومَنْ لديه الدين وليس لديه المال
ـ يصير مجنوناً، ولو كان أبا عليّ

وهنـا يشيـر نجم الـدين إلى سلطان المـال وفعله في البشـر. فهـا هــو اليهودي يتملك ويسود بالمال، وها هو المعـدم يصيبه الجنـون ـ حتى لو كـان رئيس الحكماء أبا علي بن سينا ـ ولا نشك في أننا لو تأملنا حـالنا المعـاصر، لعرفنا صدق هذه المقولة! وفي أبيات صوفية يقول نجم الدين:

اين لاله رخان كه اصلشان از چكل است

يا رب كه سرشت پاكشان ازچه كل است

دل را ببـرند وقصـد جـان نيـز كننـد

اينست بلا وكرنه زيشان چه كله است

ـ ذوات الخدود التي تشبه الشقائق، وأصلهم من شَجَلْ[١]
ـ يا ربِّ، من أية طينة، عجينتهم الطاهرة

(١) شَجَل: مدينة فارسية من بلاد ما وراء النهر، مشهورة بالنساء الجميلات.

ـ إنهنَّ يسلبن القلب، ثم يتوجهن للروح
ـ وهذا بلاءٌ، وليس للشكوى منهن سبيل!

هنا يستخدم الشيخ الرموز الصوفية، فيشير بذوات الخدود الوردية إلى تجليات الجمال الإلّهي في الكون.. تلك التجليات التي تذهب بعقول المحققين المندهشين تحت سطوة الجمال الأتم، وهم مع فرط اندهاشهم واستهلاكهم في هذا الجمال، لا يملكون الاعتراض أو الشكوى. وأخيراً، يرمز الشيخ للواردات الإلّهية بحبة الشعير، ويقول بوجوب التضحية في سبيل تلك الحبة بالدنيا وما فيها:

دركوي تو ميدهند جاني بجوي جانرا چه محل كه كاروان را بجوي
از تو صنما جوي جهاني ارزد زين جنس كه مائيم جهاني بجوي

ـ في حَيِّك، يضحون بالروح لقاء حبة شعير
ـ وما الروح.. (إنهم يضحُّون) بقافلة في مقابل حبة الشعير
ـ فإن حبة منك أيها الحبيب، تساوي عالماً
ـ فلنبحث في مقابلها، عن دنيا كاملة ممَنْ هم على شاكلتنا

* * *

بخصوص نجم الدين كبرى، يمكن الرجوع إلى:

ريحانة الأدب في ترجمة المعروفين بالكنية واللقب (بالفارسية) طرائق الحقائق (بالفارسية) التقييد لابن نقطة (مخطوط) شذرات الذهب ـ سير أعلام النبلاء ـ تاريخ الإسلام للذهبي ـ روضات الجنات للخوانساري ـ مقدمة نشرة فريتز ماير لكتاب فواتح الجمال.

وسوف نقوم ـ قـريباً ـ بتحقيق ودراسـة لكتاب (فـواتح الجمـال وفوائـح الجلال) معتمدين في ذلك على مخطوطتين من تركيا، أمـدنا بهمـا الدكتـور: حسن عباس زكي مؤخراً، وسوف نطابق النص المخطوط مع نشرة فريتـز مايـر الألمانية، ونقدِّم له ببحث حول الشيخ نجم الدين وتصوفه.

أبو الحسن الشُّشْتَري
(المتوفى ٦٦٨ هجرية)

شَرِبْنَا كَأْسَ مَنْ نَهْوَىٰ جِهَارَا فَهِمْنَا عِنْدَ رُؤْيَتِهِ حَيَارَىٰ
[الوافر]

بدأ التصوف في بلاد المغرب متأخراً عن بدايته ببلاد المشرق العربي، لكن الصوفية المغاربة ما لبثوا أن لحقوا بالأولين وتفوقوا. ولمعت في سماء التصوف القادم من المغرب، نجوم أسماء (ابن عربي، الشاذلي، المرسي، البدوي . .) كما لمع اسم ابن سبعين وتلميذه الششتري.

ولد الشيخ علي بن عبد اللَّه النميري اللوشي، المعروف بأبي الحسن الشُّشْتري[1]، بقرية (لَوْشَهْ) الأندلسية سنة ٦١٠ هجرية، في أسرة عظيمة الجاه. وحفظ القرآن في صغره، ثم درس الفقه، ولمَّا أراد التعمق في الدين ومعرفة التصوف، أخذ طريقة أبي مدين التلمساني . . ثم حدث الانقلاب الكبير في حياته الروحية حين التقى بابن سبعين (محمد بن عبد الحق بن سبعين الأندلسي، المتوفى ٦٦٩ هجرية) وكان اللقاء بمدينة بجاية، حيث التفت ابن سبعين للششتري قائلاً له: إن كنت تريد الجنة فاذهب إلى أبي مدين، وإن كنت تريد رب الجنة فهلم إليّ!

واختار الششتري طريق رب الجنة، وطلب من ابن سبعين أن يعرِّفه أصول الطريق ويقبله تلميذاً له . . فما كان من ابن سبعين إلا أن طبَّق عليه

(١) الششتري: نسبة إلى قرية (شُشْتَرْ) بوادي (آشْ) بالأندلس.

القاعدة الصوفية الخاصة بضرورة تخليص نفوس المريدين من الغرور والتكبر، وهو ما يعرف عند الصوفية باسم: كسر حدة النفس. ومع أن الششتري كان آنذاك وزيراً وعالماً، فقد طلب ابن سبعين منه أن يمسك علماً ويدور في الأسواق متغنياً بعبارة (بدأتُ بذكر الحبيب) وهو يلبس بردة بالية.. وفعل الششتري ذلك، حتى إذا كان في اليوم الثالث، وجد نفسه يتغنى قائلاً:

شويخ من أرض مكناس   في وسط الأسواق يغني
إيش عليّ من الناس   وإيش على الناس مِنّي[1]

ولازم الششتري شيخه ابن سبعين ملازمة تامة، وأخذ عنه علوم التحقيق الذوقي، وحقائق تجلي الذات الإلَهية في كل ذرة من ذرات الكون.. وكان الششتري شديد الحب لشيخه، حتى إنه كان يسمي نفسه (عبد بن سبعين) ولما وجد الناس يرفعون من شأنه هو، ويقللون من شأن شيخه ابن سبعين، كان يقول: «إنهم يفعلون هذا لقصورهم عن فهم حقيقة الشيخ..». وهو قول يتفق مع مبدإ صوفي يؤكد ضرورة تأدب المريد مع الشيخ في كل وقت.

ثم بدأ الششتري في السياحة في أرض الله الواسعة، وهي إحدى الرياضات الروحية عند الصوفية، فصحب ابن سبعين في بعض رحلاته، وقام منفرداً بارتحالات أخرى، فزار قابس ومالقة وطرابلس.. وفي طرابلس أُعجب الناس بعلومه الوَفيرة، خاصة في الفقه والسنة، فطلبوا منه البقاء وتولي القضاء، فرفض مؤثراً حياة التقشف والزهد والسياحة. فلاموه على ذلك ووصفوه بالجنون، فأنشد: [الكامل]

رَضِيَ المُتيَّمُ في الهوى بجنونه   خلُّوه يفني عمره بفُنونه

---

(١) الأبيات من فن الواو، وهو أحد فنون الموشحات.

لا تعذلوه فليس ينفع عذلكمْ | ليس السلوُّ عن الهوى من دينه
قسماً بمن ذُكرَ العقيق لأجله | قسمَ المُحبِّ بحبه ويمينه
ما لي سواكم غير أني تائبٌ | عن فاترات الحب أو تلوينه
ما لي إذا هتف الحمام بأيكة | أبداً أَحنُّ لشجوه وشجونه
فإذا البكاء بغير دمعٍ دأبه | والصبُّ يجري دمعه بعيونه

وجاء الششتري إلى مصر، واعتكف زمناً بالجامع الأزهر، وتعرَّف إلى الشاذلية فأُعجب بهم وأُعجبوا به، حتى عدَّه بعض المؤرخين من الشاذلية.. ثم خرج إلى مكة ومنها إلى بلاد الشام حيث اشترك في الحرب ضد الصليبيين، واعتكف فترة بدمشق والتقى هناك بالشاعر الصوفي نجم الدين بن إسرائيل. وانتهت حياة الششتري بأرض مصر، فقد عاد إليها من سياحاته، وبينما هو في الطريق، اشتدت عليه العلة بالقرب من دمياط.. فسأل مريديه عن المنطقة التي يمرون بها، قالوا: إنها تُسمى (الطينة) فقال: حنَّت الطينة إلى الطينة! وتوفي، فحمله مريدوه إلى دمياط فدفن بها. ولا يزال الباحثون يفتشون عن قبره هناك.

أما عن الشعر، فقد ترك الششتري ديواناً يضم قدراً كبيراً من القصائد والموشحات، إلى جانب بعض الرسائل الصوفية[1]، ونال هذا الديوان استحسان الصوفية والمؤرخين، فقال الغبريني: «شعره في غاية الملاحة، وتواشيحه ومقفياته ونظمه الزجلي في غاية الحسن..». وقال ابن عبَّاد الرُّندي: «أزجال الششتري فيها حلاوة وعليها طلاوة، وأما مقطعاته فلي فيها شهوة وإليها اشتياق، وأما تحليتها بالنغم والصوت الحسن فلا تسل، فإن

(١) من رسائل الششتري: الرسالة العلمية، المقاليد الوجودية، الرسالة البغدادية.. وكان الدكتور النشار ـ رحمه الله ـ ينوي نشرها.

قدرتم أن تقيدوا منها ما وجدتموه، فافعلوا ذلك». وكان الدكتور النشار قد جمع ديوان الششتري ونشره بالإسكندرية، لكن هذه النشرة لم يكتب لها ذيوع ولا انتشار، فظل الششتري شاعراً مجهولاً.. وعسانا من خلال المختارات الشعرية التالية، نسهم بعض الشيء في مزيد من التعريف به.

ولنبدأ بهذا الاعتراف: **[الطويل]**

سُلُوِّي مكروهٌ وحبُّك واجبُ ... وشوقي مقيمٌ والتواصل غائب
وفي لوح قلبي من ودادك أسطرٌ ... ودمعي مدادٌ مثلما الحسنُ كاتب
وقارىء فكري للمحاسن تالياً ... على درس آيات الجمال يواظب
أُنزِّه طرفي في سماء جمالكم ... لثاقب ذهني نجمها هو ثاقب
حديثُ سواك السمعُ مِنِّي محرمٌ ... فكلي مسلوبٌ وحسنك سالب
يقولون لي تُبْ عن هوى مَنْ تحبه ... فقلت عن السلوان إني تائب
عذاب الهوى عذبٌ لدى كل عاشقٍ ... وإن كان عند الغير صعبٌ وواصب

ويشرح الششتري حقيقة (الخمر) التي يتحدث عنها الصوفية، تلك الخمر التي طاش معها عقل الحسين بن منصور الحلاج حتى قُتل ببغداد سنة ٣٠٩ هجرية. يقول الششتري: **[الوافر]**

تنبه قد بدت شمسُ العُقَارِ ... وقد غلب الشعاعُ على النهارِ
سلافاً قد صفتْ قِدماً وراقت ... أدِرْها بالصغار وبالكبار
فما عُصرتْ وما جُعلتْ بِدَنٍّ ... وما سُبكتْ زجاجتها بنار
شربناها بديْرٍ ليس فيه ... سوى الحلاَّج في خلع العذار
قديمٌ عهدنا بالسكر[1] عِزًّا ... وما سُكرُ الفتى منها بعار

---

(١) يرى الصوفية أن التوحيد الشهودي للأرواح ـ قبل خلق الأجساد ـ هو الخمر القديمة السابقة على الخلق.. ومن هنا قال ابن الفارض:

شربنا على ذكرِ الحبيبِ مُدامةً ... سكرنا بها من قبل أن يخلقَ الكَرْمُ

نشا في القوم شمَّاسٌ لطيفٌ يجرُّ الذيل في ثوب الوقار
فأفناهم به عنهم فتاهوا فما يرويهُمُ شربُ البحار
تراهم شاخصين بغير لُبٍّ وقد سُلبوا بغير الاختيار
وعند دخولهم في الدير ألقوا عصاهم إذْ ألمُّوا بالجوار
كما ألقى الكليم بها عصاه ووَلَّى بالمخافة للفرار
وخلَّوا رأس مالِهِمُ طريحاً هناك وأقبلوا بالافتقار
إضاعة مالهم وجبتْ عليهمْ كما وجبَ السؤال بالاضطرار
لسانُ الشُّشْتريِّ بهم ولوعٌ وعنهم حالُهُ مُرُّ اصطبار

ونلاحظ في الأبيات السابقة، أن الششتري يستخدم عدة ألفاظ تبدو وكأنها تعبيرٌ عن تعلُّقه بالتراث المسيحي ـ مثل كلمات: الدير، شماس ـ مما جعل الدكتور النشار يفترض أن الششتري كان يتردد على الرهبان في الأديرة ويتعرَّف على طقوسهم وعاداتهم.. الخ، ولهذا وضع الدكتور النشار في كتابه (The Poetry and Mystical Philosophy AL Shushtari) تفصيلاً كاملاً لرموز الدير والراهب والشماس والصليب، باعتبارها رموزاً لمعان صوفية وراء هذه الرسوم الحسية. والحقيقة، فإن هذه الرموز أثارت دوماً غضب العامة والفقهاء، وفجَّرت زوبعة حول الششتري، حتى افترى عليه البعض بالارتداد إلى المسيحية! ولذلك قام النابلسي بشرح أكثر قصائد الششتري امتلاءً بهذه الرموز، وسمى الشرح (رد المفتري عن الطعن في الششتري).. يقول مطلع القصيدة: **[الطويل]**

تأدبْ بباب الدير واخلعْ به النعلا وسلِّم على الرهبان واحططْ بهم رحلا

وهنا يقول النابلسي: باب الدير، هو الطريق إلى الله تعالى على المشرب العيسوي المحمدي. والسلام على الرهبان، إعطاء الأمان لأهل الله

الواقفين في مقام الخوف والرهبة من سطوات القهر الإلّهي. وحط الرحال، أن لا ينكر عليهم ويحشر معهم!

وأيًّا ما كان من صحة هذه التأويلات التي يقدمها النابلسي، فلا يصح القول بارتداد الششتري إلى المسيحية ونزوعه إلى الرهبنة. فقد حارب الرجل الصليبيين تطوعاً، وأنجب العديد من الذرية خلافاً لما يفعله الرهبان، وواظب على فروض وقواعد الإسلام.. والحديث النبوي يقول: لا رهبانية في الإسلام! القضية إذن: أن الششتري اختار رموزاً خاصة للتعبير عن معانيه الذوقية، دون أن يهتم بما يثيره ذلك من حنق الفقهاء وأهل الظاهر.. وقد تناولنا هذه المسألة بالتفصيل، في بحثٍ لنا بعنوان: الرموز النصرانية في شعر الششتري[1].

ولنترك هذه الإشكالات الاصطلاحية للرموز، لننظر في أهم قصائد الششتري وأطولها على الإطلاق: **[الطويل]**

أرى طالباً منَّا الزيادة لا الحُسنى ... بفكرٍ رمى سهماً فعدَّى به عُدنا
وطَالِبُنَا مطلوبُنا من وجودنا ... نغيبُ به عنَّا لدى الصعق[2] إذ عَنَّا
تركنا حظوظاً من حضيض لحُوظنا ... من المقصد الأقصى إلى المطلب الأسنى
ولم نلف كُنْه الكون إلا توهماً ... وليس بشيء ثابت هكذا أُلْفينا
فرفضُ السوى[3] فرض علينا لأننا ... بملة محو الشرك والشك قد دِنَّا[4]
ولكنه كيف السبيل لرفضه ... ورافضه المرفوض نحن وما كُنَّا
فيا قائلاً بالوصل والوقفة التي ... حجبتَ بها اسمعْ وارعوي مثلما بنا

(١) ألقي هذا البحث في مؤتمر الحضارة الأندلسية، القاهرة، يناير ١٩٩٢.
(٢) الصعق حال صوفي قريب من الجذب والدهش.
(٣) السوى: كل ما سوى الله.
(٤) دنا: آمنا.

تقيـدتَ بـالأوهـام لمـا تـداخلت ... عليك ونور العقل أورثك السجنا[1]
وهِمْتَ بـأنـوارٍ فهمنـا أصـولهـا ... ومنبعهـا من أين كـان فمـا هِمْنـا
وقـد تحجبُ الأنـوار للعبـد مثلمـا ... تُقيِّـد من إظلامِ نفس حَـوَتْ ضِغْنـا
وأي وصـالٍ في القضيـة يُـدَّعـى ... وأكمل مَنْ في الناس[2] لم يدَّعِ الأَمْنا
ولـو كـان سـرُّ الله يـدرك هكـذا ... لقال لنا الجمهور ها نحن ما خِبنا[3]
فـكـم دونـه مـن فـتـنـة وبـليَّـة ... وكم مهمـهٍ من قبل ذلـك قـد جُبنـا
فـلا تلتفتْ في السير غيـراً وكل مـا ... سـوى الله غيرٌ فـاتخذ ذكـره حِصْنـا
وكـل مـقـامٍ لا تـقـم فـيـه إنَّـه ... حجابٌ فجدَّ السيـر واستنجد العَـوْنا
ومهمـا تـرى كـل المـراتب تجتلى ... عليـك فحُلْ عنهـا فعن مثلهـا حُلْنـا
وقـل ليس لي في غير ذاتـك مطلبٌ ... فـلا صـورةٌ تُجلى ولا طُـرفـة تُجنى
وسِـرْ نحـو أعـلام اليمين فـإنهـا ... سبيـلٌ بهـا يُمنٌ فـلا تتـرك اليُمْنـا
أمـامـك هـولٌ فـاستمـع لـوصيتي ... عِقـالٌ من العقل الـذي منه قـد تُبْنـا
أبـاد الـورى بـالمشكـلات وقبلهم ... بـأوهـامـه قـد أهلك الجنَّ والبِنَّـا[4]
محجتنـا قـطعُ الحِجـا وهـو حِجُّنـا ... وحـجَّتُنـا تـتلوه بـاء بهـا تُـهْنـا
يـبـطِّئنـا عـنـد الـصعـود لأنَّـه ... يـود لـو انَّـا للصعيـد قـد اخْلدنـا
تـلوح لنـا الأطـوارُ منـه ثـلاثـةً ... كـراءٍ ومـرئـيٍّ ورؤيـةٍ مـا قـلنـا
ويُبْصـرُ عبـداً عنـد طـور بقـائـه ... ويـرجعُ مـولى بـالفنـا وهـو لا يفنى

---

(١) يرى الصوفية أن المعرفة بالله تتخطى حدود العقل، فمجال العقل هو عالم المحسوسات.
(٢) الإشارة إلى النبي ﷺ.
(٣) يريد الششتري هنا أن يقول: إن الأسرار الإلٓهية تكون للخاصة من أهل الله.
(٤) حاول ابن عجيبة الشاذلي في شرحه للقصيدة، أن يفسر (الجن والبن) على أنهما قبيلتان.. وأعتقد أن ذلك مجرد تلفيق لغوي لمراعاة الوزن الشعري.

ثم يعرض الششتري في بقية أبيات القصيدة لمظاهر الوجود الحسي الذي يظنه الإنسان حقيقة، وهو عند أهل الحقيقة وهْمٌ وخيال. . يقول الششتري: [الطويل]

فنحن كدود القزِّ يحصرنا الذي صنعنا بدفع الحصر سجناً لنا منا
فكم واقفٍ أُرْدَى وكم سائرٍ هَدَّى وكم حكمةٍ أبدى وكم مُملقٍ أُغنى

* * *

بخصوص شعر الششتري يمكن الرجوع إلى:

ـ ديوان أبي الحسن الششتري، تحقيق د. علي سامي النشار (طبعة الإسكندرية، منشأة المعارف ١٩٦٠).

ـ رد المفتري عن الطعن في الششتري (مخطوط دار الكتب المصرية رقم ٣٦٢، تصوف ـ بلدية الإسكندرية رقم ٥٠٣، تصوف).

أما بخصوص ترجمة حياته، فيمكن مراجعة:

عنوان الدراية للغبريني ـ نفح الطيب للمقري ـ نيل الابتهاج للتنبكتي ـ إيقاظ الهمم لابن عجيبة ـ الكواكب الدرية للمناوي ـ الرسائل الكبرى لابن عباد الرندي ـ ابن سبعين وفلسفته للدكتور التفتازاني. . وهناك فصل جيد عن الششتري وأشعاره وموشحاته في بحث الدكتور: سليمان العطار، الشعر الصوفي في الأندلس (دار المعارف ـ القاهرة).

نجم الدِّين بن إسرائيل
(المتوفى ٦٧٧ هجرية)

مَـلأْتَ كُـلَّ الكَـوْنِ عِشْقـاً فَمَـا　　أعْـرِفُ قَلْباً خَـالِيـاً مِنْ هَـوَاكْ
[السريع]

حفل القرن السابع الهجري بالعديد من أعلام الإسلام في كل مجالات العلم والمعـرفة والأدب والتصـوف. ومن هؤلاء الأعلام مَنْ جمـع بين الشعـر والاتجـاه الصوفي، كـالشيـخ: محمـد بن سـوار بن إسـرائيـل بن الخضـر بن الحسن بن علي بن الحسين، الشيبـاني الشـاعـر المعـروف بنجم الـدين ابن إسرائيل.

ولد ابن إسرائيل بدمشق سنة ٦٠٣ هجرية، ومات بهـا بعد حيـاة دامت أربعـة وسبعين عامـاً. وعاصـر العديـد من رجال التصـوف ومشايخـه الكبـار، وكانت له صحبة ببعضهم كما سنذكر فيما بعد..

بدأ ابن إسرائيل حياته شاعراً حسيًّا يميل بأشعاره نحو ما يجذب شعـراء الـدنيا من زخـارف، فكانت أشعـاره في المرحلة الأولى تحمـل تلك النـزعـة الخليعة التي نجدها عند الغافلين، كما كانت تعكس اهتمامـه بالمـوضوعـات الدنيوية الهابطة كالتغزل في الغلمان! ومع ذلك فإن شعره في تلك المرحلة لا يخلو من طـرافـة.. فهـو ـ على سبيـل المثـال ـ ينـظر إلى طبيب العيـون، نجم الدين الكحال، وهو يضع الكحل في عيون حبيبته، فيبتدره قائلاً:

[الكامل]

يـا سيـدَ الحكمـاءِ هـذي سنـةٌ	مسنونـةٌ في الـطب أنت سننتهـا
أَوَ كُلَّمَـا كلَّت سيوفُ جفـونِ مَنْ	سفكتْ لواحظه الـدماءَ، سننتهـا

وكان ابن إسرائيل يكسب قوته بمدح الرؤساء والأمـراء ورجال الـدولة، وكـان في مدحـه ظرف. ثم جـاءت لحظة التحـول الروحي في حيـاته، حين حدثت معه تلك الواقعة التي يرويها قائلاً: «أضقتُ في بعض الأوقات إضاقـة شديدة، فقلت في نفسي: والله لن أمدح بعد ذلـك إلا الله تعالى..». فقلتُ قصيدتي التي أولها: [الكامل]

يا ناقُ ما دون الأثيل[1] معرَّسُ[2]	جِـدِّي فصبحـك قـد بـدا يتنفسُ
واستصحبي عزماً يبلِّغـك الحمى	لتـظلَّ تغبـطك الجـواري الكُنَّسُ

يقول ابن إسرائيل: «فجاءت القصيدة اثنين وستين بيتاً، وكـان لي عادة أن أنظم القصائد وأنقحها فيما بعد، فنظرت في هذه القصيـدة فلم أر فيها مـا يحـذف، فنمتُ ليلتي، فلما كـان وقت السَّحَر، فـإذا بـالبـاب يـدق، فقمتُ فـوجدتُ رجـلاً جاء من مصـر ومعه رسـالـة لي من الأميـر جمـال الـدين بن يغمور، وبصحبتها صرَّة ذهب. وقال الرجل: الأمير يسلم عليك، وهذا المال لك برسم النفقة! فعددتُ الذهب فكان اثنين وستين ديناراً.

ودخل ابن إسرائيل عالم التصوف، وأخذ قواعد الـطريق من يد الشيـخ علي الحـريري، ثم لبس (خـرقـة الصـوفيـة) على يـد الشيـخ شهـاب الـدين السهروردي صاحب كتاب (عوارف المعارف)، وسمع منـه الحديث النبـويّ، وجلس في الخلوة تحت إشرافه ثلاث مرات، ثم مضى يسير في الأرض على

(١) يا ناق: أي يا ناقتي.. الأثيل: واد مشهور يشير به إلى القرب من الله.
(٢) المعرس: مكان المبيت ليلاً.

صورة الزهاد الدراويش الذين ألقوا الدنيا وراء ظهورهم، ومضوا إلى الله على قدم الفقر إليه تعالى.. وظل ابن إسرائيل شاعراً، لكن شعره هذه المرة سيكون على النحو التالي: [الكامل]

يا مَنْ يُشيرُ إليهم المتكلمُ ... وإليهمُ يتوجَّه المتظلِّمُ
وعليهمُ يحلو التأسفُ والأسى ... ويلذُّ لوعاتِ الغرامِ المغرمُ
هذا الوجود وإن تعدَّد ظاهراً ... وحياتكم ما فيه إلا أنتمُ
وشغلتمُ كُلِّي بكم وجوارحي ... وجوانحي أبداً تحنُّ إليكمُ
وإذا نظرتُ فلستُ أنظر غيركم ... وإذا سمعتُ فمنكمُ أو عنكمُ
وإذا نطقت ففي صفات جمالكم ... وإذا سألتُ الكائناتِ فعنكمُ
وإذا سكرتُ فمن مدامة حبكم ... وبذكركم في سكرتي أترنَّمُ
وإذا نظمتُ تغزُّلاً في صورةٍ ... فلأجل حُسنكمُ المحجَّبِ أنظمُ
أنتم حقيقةُ كُلِّ موجودٍ بدا ... ووجود هذي الكائناتِ تَوَهُّمُ
أنا في وجودكمُ غريبٌ بائسٌ ... وغريبكم ما بالهُ لا يرحمُ

ففي هذه الأبيات، نرى ابن إسرائيل وهو يطلق كل معانيه الشعرية إلى مراد واحد فقط، هو الله تعالى. كما نراه وهو يعبِّر عن فكرة صوفية كبرى، تتلخص في أن الموجود على الحقيقة هو الله، وما عداه وهم وباطل يظنه المحجوبون حقائق.. وقد تناول ابن إسرائيل هذه الفكرة في العديد من قصائده الصوفية التي يقول في إحداها: [السريع]

إن أَمَّ صحبي سمراً أو أراكْ[1] ... فإنما مقصدهم أن أراكْ
وإن ترنَّمتُ بذكر الحمى ... فإنما عقدُ ضميري حِماكْ

(١) الأراك: نوع من الأشجار.

وإن دعـا غـيـرك داعٍ فـمـا — أحـسـبُ إلا أنـه قـد دعـاكْ
وإن بـكـى صـبٌّ حـبـيـبـاً فـمـا — أحـسـبُ إلا أنـه قـد بـكـاكْ
يـا جـمـلةَ الـحـبِّ وتـفـصـيـلَهُ — أجملتَ إذ فـرَّغتني من سـواكْ
ويـا غنيّـاً عـن غـرامـي بِـهِ — مَنْ لي بـأن يـرحمَ فقـري غنـاكْ
مـلأتَ كـلَّ الكـون عشقـاً فمـا — أعـرفُ قلبـاً خـاليـاً من هـواكْ

وعلى ما في هذه الأبيات من بساطة لغوية وفقر بلاغي، إلا أنها عميقة الصدق وغنية بالمفاهيم الصوفية الرامية إلى أن كل ذرة من ذرات الوجود في تسبيحٍ دائم لله، وهو ما ورد في نص الآيات القرآنية كقوله تعالى: **﴿وإن من شيء إلا يسبِّح بحمده﴾**[1] والرامية أيضاً إلى القول بوجود الله فقط في أعين المحققين من الأولياء.. وقد أثارت هذه الأفكار معاصري ابن إسرائيل، فقد روى المؤرخون أنه كان بمجلس صوفي، وكان ابن الحكيم الحموي حاضراً، فغنّى المغني من شعر ابن إسرائيل قوله: **[الطويل]**

ومـا أنتَ غير الكـون بـل أنت عينـه — ويفهـم هــذا الســرَّ مَـنْ هــو ذائقُ

فقال ابن حكيم: كفرتَ كفرتَ، فقال ابن إسرائيل: لا مـا كفرتُ ولكن أنت ما تفهم.. وتنازعا، وتشوَّش الوقت!

ولنترك التنازع وتشوش الأوقات، لنقرأ هذه الغزلية الصوفية الرقيقة التي يرمز فيها ابن إسرائيل للجمال الإلّهي بليلى، فيقول مؤثراً الموت على الهجر: **[الرجز]**

هـل عهـد ليلى بـالكثيب عـائـدُ — أم طيفهـا لسُقْمِ جسمي عـائـدُ
حـوراء حار العقـلُ في صفـاتهـا — لهـا الجمـالُ عـاشقٌ وحـاسـدُ

(١) سورة الإسراء (الآية: ٤٤).

فكــلُّ عضوٍ فيــه بـدرٌ طــالعٌ وكـلُّ عـطفٍ فيــه غصنٌ مـائـدُ
فعـطفهـا وحُسنُ صبـري نـاقصٌ وحسنهــا وفـرط وجــدي زائـدُ
يــا كعبـةَ الحسنِ التي أحجُّهــا فـؤادُ مُـضـنــاكَ عـليـكَ وافـدُ
قد سُقْتُ في الهوى إليك مهجتي والــدمُّ دمـعٌ لغــرامي شــاهـدُ
وطفتُ في مَغْنَــاك[1] حتى مَلَّني من أرضـك الـرسـومُ والمعـاهـدُ
ولم أقصِّر فيك عن حفظ الهـوى والحــرُّ مَنْ يحفظ مَنْ يعــاهـدُ
وربمــا يُجْمَــعُ جمــعُ شملنــا بكُمْ وتصفــو عـنـدك المــواردُ
وعَـلَّنــا نقـضي مُـنَــانَـا بمِـنَـى وتنقضي مِنْ وَصْلنـا المــواعـدُ
أو لا فـمَــوْتِي فـيـكـمُ شـهــادةٌ عليَّ فيهــا بـالــرضى شـواهـدُ

ويواصل ابن إسرائيل بث شكاواه وأشواقه، فيقول: [الطويل]

إلى كم، رعـاك الله، تنـأى وأقـربُ وأرضى بمــا تجني عليَّ وتـغضـبُ
فـلا أنتَ مشك إن شكـوتُ فيشتفي فؤادي وإن أعتبْ فمــا أنت مُعْتَبُ
تكلفـتَ لي ذاك الــودادَ فـلم يـدمْ وكــلُّ ودادٍ بــالـتـكـلفِ يـصـعـبُ
ومَنْ يتكلفْ ضــدَّ مــا هــو طبعــه تَعُـدْ نفسـه للطبـعِ والـطبـعُ أغلبُ
يـقــولــون هنــدٌ لا تــدومُ وزيـنب علي العهد، كُلُّ النـاس هندٌ وزينبُ
تــطلبــتُ ودًّا لا يــكــون لــعــلةٍ فــأعْــوَزَني وجــدانُ مــا أتــطلبُ
وحـاولتُ مَنْ يُـوفي بعهـدٍ فلم أجـدْ كـأن الذي حـاولتُ عنقاءُ مغـربُ[2]
تلطَّفْ فـإن اللطف منــك سجيــةٌ تعـطَّفْ فـإن العـطف منـك مجـرَّب
وإن كـان لا بُـدًّا من الهجـر فـاتئـدْ لعــل رحيلي عن جنـابـك يُقْــرِبُ
ســأرحــلُ عنــك اليــوم لا متلفتٌ بــوجهي كــأنـي خــائفٌ متــرقِّبُ

---

(١) المغنى: الأرض الكثيرة الزرع والشجر.
(٢) عنقاء مغرب: طائر أسطوري، يرمز دوماً للمستحيل.

وأمـا ودادي فـهـو بـاقٍ وإن مـن ... بـقـاء ودادي أنـنـي أتـعـتَّـبُ

وشعر ابن إسرائيل ليس هجراً كله، وإنما فيه أيضاً وصال: **[الطويل]**

وَفَى لِيَ مَنْ أهـواهُ جهراً بمـوعـدي ... فـأرغمَ عُـذَّالي عـليـه وحُسَّـدي
وزارَ عـلى شَـحْطِ الـمـزارِ تـطوُّلاً ... على مغـرمٍ بـالـوصـلِ لم يتعـودِ
فيـا حُسنَ مـا أبـدى لعيني جمـالـه ... ويا بردَ ما أهدى إلى قلبيَ الصَّدِي[1]
ويـا صدقَ أحـلامي ببُشرى وصـالـه ... ويـا نَيْلَ آمـالي ويا نُجْـح مقصـدي
نـديميَّ من سعـدٍ أريحـا ركـائبي ... فقـد أُمِنَتْ من أن تـروح وتغتـدي
ولا تلزمـاني النسك فـالحب شاغلي ... ولا تـذكرا لي الـوِرْدَ فالـراحُ موردي
ولا تَقِفـا بي في الرسـوم التي عَفَتْ ... فقـد طـال حبسي بين نؤي ومـوقـدِ
ومُـرَّا على حيٍّ بمنعـرج اللوى[2] ... وقـولا لغـزلان الصـريم ألا ابعـدي
ولا تسعـداني بعـدهـا لكمـا البقـا ... فمـا فيَّ بعـد اليـوم فقـرٌ لمُسْعِـدِ
أمِنْ بعـد مـا قـد بـرَّد الشـوقُ غُلَّتي ... وزار الكـرى أجفانَ طـرفي المسهَّدِ
وهامت بي الصهباءُ[3] وجداً فكُلُّ مَنْ ... سقـاها لـه طرفٌ إلى رؤيتي صَـدِي
وأمسيت والكاساتُ شمسي وأصبحتْ ... عروسُ حميًّا الحان تجلى على يدي
وأضحتْ ظباءُ الحيِّ صيدَ خـلاعتي ... وإن صِدْنَ من أهل النُّهَى[4] كلَّ أصيدِ
ذراني وعـزمي والـدجـى ومـزاره ... فقـد أبت العليـاء[5] إلا تـفـرُّدي
ولا تـأيسـا من رَوْحِـهِ[6] وتأسَّيـا ... فكم مُعرضٍ في اليوم يُقْبـل في غدِ

---

(١) الصدي: العطشان.
(٢) منعرج اللوى: موضع.
(٣) الصهباء: الخمر.
(٤) النهى: العقول الراجحة.
(٥) العلياء: قمة الجبل ورأس كل شيء مرتفع.
(٦) الأيس: اليأس.. والرَّوْح: الرحمة.

ففي الحيِّ صَبٌّ باع مهجةَ نفسه ... لجيرةِ ذاك الحيِّ نقداً بموعدِ
هو الحب إما مُنية أو مَنِيَّة ... ودونَ العُلا حدُّ الحسام المُهَنَّدِ
ألم تَرَيا أني وجدتُ تلذُّذي ... برؤياهُ عُقبى حيرتي وتلدُّدي
وقد عشتُ دهراً والزمانُ يهزُّني ... وتطربني الألحان من كل مُنشدِ
فأغدو وفي ليل الغدائر دائباً ... أضلُّ ومن صبح المباسم أهتدي
ويسقم جسمي كلُّ جفنٍ وتارةً ... يورِّدُ دمعي كلُّ خدٍّ مورَّدِ

وأنشد أبياتاً قال فيها: [البسيط]

لم يقضِ في حبكم بعضَ الذي يجبُ ... صبٌّ متى جرت ذكراكمُ يجبُ[1]
أحبابنا والمُنى تُدني زيارتكم ... وربما حالَ من دون المنى الأدبُ
قاطعتموني فأحزاني مُواصِلةٌ ... وحلتمُ[2] فحلا لي فيكم التعبُ
ما رابكم من حياتي بعد بُعدكمُ ... وليس لي في حياةٍ بعدكم أربُ
رُحتمْ بقلبي وما كادت لتسلبه ... لولا قدودكم الخطيَّةُ السُّلُبُ
يا بارقاً ببريق الحزن لاح لنا ... أأنت أم أسلمتْ أقمارَها النُّقُبُ
ويا نسيماً سرى والعطر يصحبه ... أجُزْتَ حيث مَشَيْنَ الخُرَّدُ العُرُبُ
أقسمتُ بالمقسمات الزهر تحجبها ... سُمْرُ العواليّ والهنديةُ القضبُ
لكدتَ تشبه برقاً من ثغورهمُ ... يا درَّ دمعيَ لولا الظَّلْمُ والشَّنَبُ[3]

ولهذه الأبيات قصة، جمعت بين ابن إسرائيل وابن الخيمي وابن الفارض في أحداثها. ولسوف نرويها في كلامنا عن ابن الخيمي فيما بعد.

* * *

(١) يجب: يضطرب قلبه.
(٢) حلتم: تحولتم.
(٣) الشنب: بياض الأسنان.

المصدر الرئيسي لترجمة ابن إسرائيل ومقتطفات أشعاره التي قدمناها، هو فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي. ويمكن أيضاً الرجوع إلى: الوافي بالوفيات ـ شذرات الذهب ـ البداية والنهاية لابن كثير ـ لسان الميزان لابن حجر ـ البدر السافر ـ العبر.

شِهاب الدِّين بن الخَيْمي

(المتوفى ٦٨٥ هجرية)

وَقَـالَ لِيَ العُذَّالُ هَـلْ أَنْتَ رَاجِـعٌ إِذَا رَجِعُوا عَنْ غَدْرِهِمْ قُلْتُ: لَا أَدْرِي!

[الطويل]

في تلك المرحلة الزاخرة بالصوفية الشعراء، عاش محمد بن عبد المنعم بن محمد الأنصاري، اليمني الأصل، المصري الإقامة، المعروف بشهاب الدين ابن الخيمي. فكانت حياته التي امتدت اثنتين وثمانين سنة، حافلةً بما كان يشيع في القرن السابع الهجري من شعرٍ ممزوج بالنزعة الصوفية.

يصف المؤرخون ابن الخيمي بأنه (حامل لواء النظم في وقته) وهو وصف يرفعه في ميدان الشعر على سائر معاصريه، بمن فيهم ابن إسرائيل الذي تحدثنا عنه فيما سبق، وغيره من شعراء الصوفية الآخرين.. وهو يبدو دوماً في صورة الابن الروحي للشاعر الصوفي الأشهر: عمر بن الفارض.. وقد أشار سبط ابن الفارض في ديباجة ديوانه إلى أن ابن الفارض كان يعامل ابن الخيمي معاملة الوالد لولده.

ثم يرفع ابن فضل اللّه العُمَري المؤرخ من شأن ابن الخيمي كمتصوف، فيصفه بأنه (قدوة في الطريقة وأسوة في الحقيقة) وبذلك يكون لدينا: شخصية برزت في الشعر وفي التصوف!

إلا أن ابن الخيمي لم يقف فقط عند حدود التصوف والشعر، بل كان أيضاً من كبار المشتغلين بعلم الحديث النبوي. كما كان من كبار موظفي الدولة، فهو يخدم في الديوان السلطاني، ويباشر الأوقاف الخاصة بمدرسة الشافعي ومسجد الحسين بالقاهرة. وهو أخيراً متكلم في أمور الدين، معروف بالأجوبة المُسكتة وبعدم الغضب والانفعال في الحوار.

تلك هي شخصية ابن الخيمي، كما تقدمها المصادر التاريخية وكتب الطبقات.. لكن ما يهمنا هنا هو شعره الصوفي! فلنقرأ إذن تلك الأبيات الرقيقة التي يصف فيها احتراق قلبه بنار الحب الإلّهي، فيقول: **[الطويل]**

كلفتُ ببدرٍ في مبادي الدجا بدا ... فعاد لنا ضوءُ الصباح كما بدا
وحجَّبَ عنا حُسْنَهُ نورُ حسنه ... فمن ذلك الحسن الضلالة والهدى
فيا عاذلي دعني ونارَ صبابتي ... عليه فإني قد وجدتُ بها هُدَى[1]
وهاك يدي إني على ترك حُبِّه ... مدى الدهر لا أعطيك يا عاذلي يَدَا

فما العيش إلا أن أبيت مواصلاً ... ليدريَ أو في حبِّ بدري مُسَهَّدا
فيا نار قلبي حبَّذا أنت مصطلى ... ويا دمع عيني حبَّذا أنت مَوْرِدا[2]
ويا سَقمي في الحب أهلاً ومرحباً ... ويا صحةَ السلوان شأنك والعِدَا
فلستُ أرى عن مِلَّة الحب مائلاً ... وكيف ونورُ العامرية[3] قد بَدَا

---

(١) الإشارة إلى نار موسى عليه السلام، وقوله: أجد على النار هدى.

(٢) على النحو الوارد هنا، جاء البيت في كتاب (فوات الوفيات) أما في (شذرات الذهب) فقد جاء كما يلي:

فيا حبذا نار لقلبيَ تصطلي ... ويا دمع عيني حبذا أنت موردا

(٣) العامرية: هي المعشوقة العربية المشهورة (ليلى) والصوفية يرمزون بها للجمال الإلّهي.

ثم نرى ابن الخيمي وهو يعاني ألم الفراق، وغياب الواردات والإشارات الإلّهية من قلبه، فيصطنع أسلوب الغزل ويكني عن الحبيب، فيقول باكياً: [الطويل]

سلامٌ على بُعد المزار وقربهِ سلامُ فتىً ما زال عن عهد حِبِّهِ
يُعلِّله إن فاته طيبُ وصلكم لذيذُ هواكم في سويداء قلبهِ
ويَلْقى بخَدَّيْهِ النسيمَ لأنه بمغناكُمُ قد جرَّ ذيلاً بثوبهِ
ويعترضُ الركبانَ علَّ مبشِّراً بقربكُمُ يقضي بتَفْريجِ كَرْبهِ

ويبدو أن شعر ابن الخيمي لم يكن ملتزماً فقط بحدود الموضوعات الصوفية، بل كان ينطلق في كل المناسبات، ويتحرك مع كل موقف.. لكنه كان يعود فيلوي عنان الشعر نحو المحبة والوجد مرة أخرى، وذلك ما يظهر من أبياته التي قالها وهو يعاني من حمى شديدة أصابته: [الخفيف]

صَاحِ قُلْ للطبيب ما هي حُمَّى تلك نارُ اشتياقِ قلبي إليهمْ
وخروجُ المياهِ من جسمي الـ ـمُضنى بُكا أعينِ المَسَام لديهمْ
ما شفاني بكاءُ عينيَ حتى ساعدتني عيونُ جسمي عليهمْ

وقوله في مسبحة سوداء: [السريع]

ومسبحةٍ مسودَّةٍ لونها يحكي سوادَ القلب والناظرِ
كأنَّني عند اشتغالي بها أعُدُّ أيَّامك يا هاجري

وفي شعر ابن الخيمي أبياتٌ، لم أَطمئنّ إلى حملها على الجانب الصوفي، وإن كانت تحتمل تأويلاً بعيداً.. فمن ذلك وصفه لهذه المحبة التي لا تليق في ظاهرها بالمحبة الإلّهية:

[الطويل]

أيا مَنْ سَلَوْا عنا ومالوا إلى الغدرِ وما لزموا أخلاق أهل الهوى العُذري
وبعد حلاواتِ التواصل والهوى جنوا مُرَّ طعم الهجر من علقم الصبرِ
إذا ما رجعتم عَنْ محبتكم لنا مشاةً رجعنا عن محبتكم نجري
وإن كنتمُ في الجهر عنا صددتمُ ففي سرِّنا عنكم نصدُّ وفي الجهرِ
سكنتم فؤادي مرَّةً ورحلتمُ فأصبحَ منكم خالياً خاليَ السرِّ
وقال ليَ العُذَّال هل أنت راجعٌ إذا رجعوا عن غدرهم قلتُ لا أدري

ولابن الخيمي غير ذلك من الأبيات التي لا يمكن بأي حال أن تعد شعراً صوفياً، ومهما كان تأويلها من قريبٍ أو بعيد، فإنها تظل أشعاراً حسية لا تتفق مع نزعة العلو والسمو الصوفي. فمن ذلك ما نجده له من أبياتٍ في وصف الخمر، وهي أبيات طوال حاولنا أن نتلمس فيها أي إشارة إلى كونها خمر المحبة التي يتحدث عنها المتصوفة والصوفية، فلم نجد لتلك الإشارة أثراً.. ومن ثم، فقد آثرنا عدم ذكر هذه الأبيات هنا، حتى لا يتكدر صفو الحال! فمن أراد مطالعتها، فليراجع (فوات الوفيات) فهناك قدر لا بأس به منها.

وآخر حديثنا عن ابن الخيمي، حكايةٌ لطيفةٌ وردت في عدة مصادر تاريخية. وهي الحكاية التي ذكرنا في خاتمة الكلام عن ابن إسرائيل أننا سنعود إليها هنا. تقول الحكاية:

كان ابن إسرائيل في طريقه إلى الحج، فوجد ورقة ملقاة، بها قصيدة بائية رائعة، تمتلىء بالمعاني الذوقية والنكات الشوقية والمشاعر الصوفية. وكان مطلع القصيدة: [من البسيط]

يا مطلباً ليس لي في غيره أَرَبُ إليك آل التقصِّي وانتهى الطلبُ

وادعى ابن إسرائيل القصيدة لنفسه! مع أنها لابن الخيمي، ومعروفة له.. وتنازعا في ملكية القصيدة، فأفتى الأدباء بأن يحتكما إلى سلطان

العاشقين عمر بن الفارض، فقال لهما: ينبغي لكل واحد منكما أن ينظم أبياتاً على نفس منوال القصيدة المتنازع فيها. فنظم ابن إسرائيل الأبيات التي ذكرناها في خاتمة حديثنا عنه فيما سبق، ونظم ابن الخيمي الأبيات التي سنذكرها بعد قليل.. فحكم ابن الفارض بأن القصيدة لابن الخيمي! والحقيقة، فقد كان حُكم ابن الفارض صائباً، فالجو العام في أبيات ابن إسرائيل جاء مختلفاً عن روح القصيدة المتنازع عليها، بينما تتلاءم أبيات ابن الخيمي وتنسجم معها.. ولقد كانت القصيدة محل النزاع تقول: **[البسيط]**

يا مطلباً ليس لي في غيره أرب ... إليك آل التقصّي وانتهى الطلبُ
وما أراني أهلاً أن تواصلني ... حسبي علوّاً بأني فيك مكتئبُ
لكن ينازعُ شوقي تارةً أدبي ... فأطلبُ الوصلَ لما يضعفُ الأدبُ
ولستُ أبرحُ في الحالين ذا قلقٍ ... نامٍ وشوقٍ له في أضلعي لهبُ
ومدمعٍ كلما كفكفتُ صَيِّبَهُ ... صوناً لذكرك يعصيني وينسكبُ
ويدَّعي في الهوى دمعي مقاسمة ... وجدي وحزني ويجري وهو مُختضبُ
كالطرف يزعم توحيدَ الحبيب ولا ... يزالُ في ليلهِ للنجمِ يرتقبُ
يا صاحبي قد عدمتُ المسعدين فسا ... عدني على وَصَبي لا مَسَّكَ الوصبُ
بالله إن جزتَ كثباناً بذي سَلَمٍ[(١)] ... قفْ بي عليها وقُلْ لي: هذه الكثبُ
ليقضيَ الخدُّ من أجراعها[(٢)] وَطَراً ... في تُربها ويؤدِّي بعض ما يجبُ
ومِلْ إلى البانِ[(٣)] من شرقيّ كاظمةٍ ... فلي إلى البان من شرقيِّها أربُ
وخذ يميناً لمغنّى تهتدي بشذا ... نسيمه الرطب إن ضلّت بك النُّجبُ[(٤)]

---

(١) ذو سلم: موضع.
(٢) الأجراع: الأرض الرملية.
(٣) البان: شجر من أشجار البادية.
(٤) النجب: الإبل السريعة.

حيث الهضابُ وبطحاها يروِّضها دمعُ المحبين لا الأنداءُ والسحبُ
أكرمْ به منزلاً تحميه هَيْبَتُهُ عني وأنواره لا السمرُ والقُضُبُ
دعني أعلِّل نفساً عزَّ مطلبها فيه وقلباً لغدرٍ ليس ينقلبُ
ففيه عاينتُ قدماً حسنَ مَنْ حسنتْ به الملاحةُ واعتزتْ به الرتبُ
أحيا إذا متُّ من شوقٍ لرؤيته بأنني لهواه فيهِ مُنتسِبُ
ولستُ أعجبُ من جسمي وصحته في حبه إنما سُقمي هو العجبُ
والَهْفَ نفسيَ لو أجدى تلهفها غوثاً وواحربا لو ينفعُ الحربُ
يمضي الزمانُ وأشواقي مضاعفةٌ يا للرجال ولا وصلٌ ولا سببُ
يا بارقاً بأعالي الرقمتين[1] بدا لقد حكيتَ ولكن فاتك الشنبُ[2]
ويا نسيماً سرى من حيٍّ كاظمةٍ بالله قل ليَ كيف البانُ والعَذَبُ[3]
وكيف جيرةُ ذاك الحيِّ هل حفظوا عهداً أراعيه إن شطُّوا وإن قربوا
أم ضيعوا ومرادي منك ذِكْرُهُمُ هُمُ الأحبةُ إن أعطوا وإن سلبوا
إن كان يُرضيهُمُ إبعاد عبدهمُ فالعبدُ منهمْ بذاك البُعد مقتربُ
والهجرُ إن كان يرضيهم بلا سببٍ فإنه من لذيذ الوصلِ مُحتسَبُ
وإن هُمُ احتجبوا عني فإن لهم في القلب مشهودَ حُسنٍ ليس يحتجبُ
قد نزَّه اللطفُ والإشراقُ بهجته عن أن تمنِّعها الأستارُ والحُجُبُ
ما ينتهي نظري منهم إلى رتبٍ في الحسنِ إلا ولاحتْ فوقها رتبُ
وكلما لاح معنىً من جمالهمُ لبَّاه شوقٌ إلى معناه مُنتسبُ
أظلُّ دهري ولي من حبهمْ طربٌ ومن أليم اشتياقي نحوهم حَرَبُ

.. أما القصيدة التي نظمها ابن الخيمي على نفس المنوال، فكانت:

---

(١) الرقمتان: موضع.
(٢) الشنب: بياض الأسنان.
(٣) العذب: نوع من الشجر المتمايل.

[البسيط]

لله قـومٌ بـجـرعـاء الحـمى غُـيُبُ ... جنـوا عليَّ ولمـا أن جنـوا عتبـوا
يا ربِّ همْ أخذوا قلبي فلم سخـطوا ... وإنهمْ غصبـوا عيشي فلم غضِبـوا
هم العُـرَيْبُ بنجـدٍ مُـذْ عـرفتهمُ ... لم يبقَ لي مـعهـم مـالٌ ولا نشـبُ
شـاكون للحـرب لكن من قُـدودهمُ ... وفاتراتُ اللحاظِ[١]؛ السمرُ والقضبُ[٢]
فـمـا ألـمـوا بـحـيٍّ أو ألـمَّ بـهـمْ ... إلا وغـاروا على الأبيـات وانتهبـوا
عهدتُ في زمن البطحاء عهد هـوى ... إلـيهـمُ وتـمـادتْ بـيـننـا حِـقَـبُ
فما أضاعوا قديمَ العهـد بل حفـظوا ... لكن لغيـريَ ذاك العهـدَ قـد نسبـوا
مَنْ مُنصفي من لـطيفٍ منهمُ غَنِـجٍ ... لـدنِ القـوام لإسـرائيـل[٣] ينتسبُ
مُبـدِّلِ القول[٤] ظلمـاً لا يفي بمـوا ... عيد الوصـال ومنه الـذنبُ والغضبُ
تُـبينُ لـثـغـتُـهُ بـالـراء نـسـبـتَـهُ ... والمينُ منـه بـزورِ الـوعـدُ والكـذبُ
مُـوَحَّـدٌ فيـرى كـلَّ الـوجـود لـه ... مِلكـاً ويبـطل مـا يـأتي بـه النسبُ
فعن عجـائبـه حـدِّثْ ولا حـرجُ ... ما ينتهي في المليحِ المطلقِ العجبُ
بـدرٌ ولكن هـلالاً لاح إذ هـو بـالـ ... ـورديِّ من شفق الخـدَّيـن منـتقـب
في كـأس مبسمـه من حلو ريقتـه ... خـمـرٌ ودرُّ ثـنـايـاه لـهـا حَـبَـبُ
فـلفـظه أبـداً سكـران يُـسمـعنـا ... من مغرب اللحن[٥] ما يُنسى به الأدبُ
تجـني لـواحـظه فيـنـا ومنـطقـه ... جنـايةً تُجتنى من مُـرِّها الضَّـرَبُ[٦]
حلو الأحـاديث والألحاظ سـاحـرهـا ... تُـلقى إذا نـطقَ الألـواحُ والـكـتـبُ

---

(١) اللحاظ: خطوط الكحل في العين.
(٢) السمر والقضب: الرماح والسيوف.
(٣) الإشارة إلى جمال بنات بني إسرائيل.
(٤) الإشارة إلى تبديل اليهود لنصوص التوراة.
(٥) اللحن: النطق بلغة غير سليمة، إما للجهل بالنحو أو لفرط الدلال.
(٦) الضرب: نوع من العسل الأبيض. وهو من مصطلحات المنطق، حيث لكل شكـل من أشكال القياس عدد من الضروب.

لم تبقِ ألفــاظــه معنىً يــرقُّ لنــا لقـد شكتْ ظلمه الأشعـار والخطبُ
فداؤه ما جـرى في الدمـع من مهجٍ وما جرى في سبيـل الحبِّ محتسَبُ
ويحَ المتيَّم[1] شامَ البرقَ من إضم[2] فهــزَّه كـاهتــزاز البــارق الحَـرِبُ
وأسكن البــرقَ من وجـدٍ ومن كلفٍ في قلبــه فهـو في أحشــائــه لهبُ
وكـلمــا لاح مـنــه بــارقٌ بـعـثـتْ مـاءَ المـدامـع من أجفـانــه سُحُبُ
ومـا أعادت نُسيمـاتُ الغويـر[3] لـه أخبـار ذي الأثل[4] إلا هـزَّه الطربُ
واهـاً له أعـرضَ الأحبـابُ عنـه ومـا أجـدتْ رسائله الحُسنى ولا القـربُ

* * *

للمزيد عن ابن الخيمي وشعره، يمكن الرجوع إلى:

بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن إياس ـ حسن المحاضـرة في أخبار مصر والقاهرة للسيوطي ـ وفيات الأعيان ـ فوات الوفيـات ـ الوافي بـالوفيـات ـ البدر السافر ـ شذرات الذهب ـ العبر في خبر مَنْ غبر للذهبي . .

---

(١) المتيم: العاشق المستعبد.
(٢) إضم: موضع.
(٣) الغوير: موضع.
(٤) ذو الأثل: واد معروف.

ابن أَسْعد اليافعي
(المتوفى ٧٦٨ هجرية)

سُكَـارَى وَلَمْ يُسْقوا مُـدَاماً وَإِنَّمَـا

سُقُوا حُبَّ حُسْنٍ جَلَّ عَنْ وَصْفِ وَاصِفِ

هـو شيخ متصـوفة القـرن الثامن الهجـري: عبد اللّٰه أسعـد بن علي بن سليمـان بن فلاح، نـزيل مكـة. ولد ببـلاد اليمن في غضون ٦٩٨ هجـريـة، وتـوفي بمكة ولـه من العمر قـرابـة السبعين عـامـاً، بعـد حيـاة حـافلة بـالعلم والمجاهدة الروحية.

كان والده قد توسم فيه الفلاح من الصغر، فبعث به إلى (عـدن) ليتلقى العلوم الدينية، لكن حب الخلوة والسياحة في الجبال غلبا عليـه، خاصـةً بعد لقائه بالشيخ علي الطواشي الذي لقَّنه مبادىء التصوف وأصوله. يقول اليافعي عن زمن ابتـدائه: «حصـل لي في بعض الأيام فكـرٌ وتـرددٌ، هـل أنقـطعُ إلى العلم أو إلى العبادة؟ ودخل عليَّ بسبب ذلك همٌّ كثير». فبينما أنا كـذلك، إذ فتَّشتُ كتاباً لأنظُر فيه على قصد التبرك والتفـاؤل، فوجـدت فيه ورقـة لم أكن أراها قبل ذلك رغم كثرة اشتغالي به ونظري فيه، وإذا مكتوبٌ فيها: **[الكامل]**

كُن عن همـومك مُعـرضـا　　وكِـلِ الأمـور إلى القضـا
فلربمــا اتســع المـضيـقُ　　وربـمــا ضــاق الـفـضــا
ولــرُبَّ أمــرٍ مُـتـعِـبٍ　　لــك في عــواقِبـه رضــا
وابشــرْ بعــاجــل فـرجـةٍ　　تنسى بهــا مـا قــد مضى

اللهُ يـفـعــلُ مــا يــشــاءُ   فــلا تـكـن مُـتـعــرِّضـا

يقول اليافعي: «فسكن ما عندي، ثم شـرح الله صدري لمـلازمة العلم الشريف» وهكذا ولج اليافعي باب التصوف، فتجـرد عن الأشغال الـدنيويـة، وظل سائحاً بين مكة والمدينة، ثم ارتحـل إلى الشام وزار بيت المقـدس وقبر الخليـل، ونزل مصـر حيناً من الـدهر، ثم رجـع لبلاد الحجـاز، وقصد بـلاد اليمن لزيارة شيخه الطواشي، وعاد بعد ذلك إلى مكة ولم يغادرها حتى انتقل لجـوار ربـه. . وطـوال هـذا التـرحـال، لم تفتـه حجـة واحـدة! فكـان يؤدي الفريضة، ثم يعاود أسفاره.

وترك اليافعي العديد من المؤلفـات، منها: مـرآة الجنان وعبـرة اليقظان في معـرفة حـوادث الزمـان ـ روض الريـاحين في حكايـات الصالحين ـ تتمـة روض الـرياحين المـوسـوم بخـلاصـة المفـاخـر في اختصـار مناقب الشيـخ عبد القادر ـ نشـر المحاسن الغـالية في فضـل الصوفيـة أصحـاب المقـامـات العالية ـ مرهم العلل المعضلة في أصول الـدين ـ الإرشاد والتـطريز في فضـل ذكر الله وتلاوة كتابه العزيز ـ نشر الروض العطر في حياة سيدنا الخضر ـ ديوان شعر.

ومن الناحية الصوفية، غلبت على اليافعي النزعـة التأريخيـة لحياة كبـار المتصوفة، وشرح معاني التصوف شرحاً مفصلاً، والـدفاع عن المفـاهيم التي وضعهـا أهل الـطريق الصوفي. . كمـا تميز بـإغراق لا مثيـل له، في حـديث الكرامات!

وكان اليافعي شديد الإعجاب بالصوفية الذين ثارت حـولهم الأقاويـل، كأبي الغيث بن جميل ومحيـي الـدين بن عربي، كمـا كان يقلِّل من قـدر ابن تيمية. . ولهذا انقسم الناس في أمر اليافعي لفريقين: فريق يعظمه ويُعلي من

قـدره، وفريق يحط من شـأنه ويحمـل عليـه حملة شعـواء. ومن الـطبيعي أن يكون الفريق الثاني هم الحنابلة أنصار ابن تيمية.

ومن حيث الشعـر، أفاض اليـافعي في نظم حقـائق التصـوف، وسبـك العديد من القصائد المفردة الطويلة. كما كان ينتهز في كتاباته كـل فرصـة كي يصـوغ أبياتـاً تعبِّر عن المعنى الـذي يتحدث فيـه، فهو ـ على سبيـل المثال ـ يتوقف في حديثه عن فضل الفقر وذم الدنيا، ليقول: **[الطويل]**

وقـائلةٍ مـا المجـدُ للمـرء والفخـرُ — فقلتُ لهـا شيءُ لبيض العـلا مهـرُ
فـأمـا بنـو الـدنيـا ففخـرهم الغنـا — كـزهـرٍ نضيـرٍ في غـدٍ ييبس الـزهـرُ
وأما بنو الأخـرى ففي الفقر فخـرهم — نضـارتـه تـزدادُ مـا بقيَ الـدهـرُ

وعلى هذا النحو تحتشد الأبيات الشعـرية في كتـابات اليـافعي، بحيث يتلمس من شعر السابقين عليه ما يوافق المعنى الذي يتنـاوله، فـإن لم يجد، وضع هو أبياتاً من تأليفه. ولهذا لا تخلو صفحة واحـدة في مؤلفاتـه من أبيات شعرية.

وشعر اليافعي يغلب عليه طابع النظم، ولا يرقى من الناحية الفنية لشعر المبرزين من شعراء المتصوفة، لكنه ـ مع ذلك ـ لا يخلو من ومضات جمـالية تلمـع في بعض المواطن.. وهي ومضـات لا تكفي في جملتها لـوضعـه إلى جانب ابن الفارض والتلمساني وغيرهما من أقطاب الشعر الصوفي.. عموماً، فلن نسـرف هنا في الحكم على شعـر اليافعي، ذلـك أن الناس ـ كمـا يقـول الأمـدي ـ يختلفـون في قـدر قبـولهم لشـاعـر دون آخـر. فلننـظر إلى هــذه المقتطفات من شعر اليافعي، ونتعرف معاً على طبيعة إنتاجه:

كتب اليافعي قصيدة بعنوان (الراح المختوم والدرُّ المنظوم في مدح المشايخ أصحاب السر المكتوم، وذم الطاعنين فيهم من جميع الخصوم) فقال في أبياتها: **[الطويل]**

سَلا عن حمى سلمى وعن أهله الغُرِّ ... عسى خبرٌ يلقاكما طيِّب الذكرِ
يجيء به من نحوها عذبُ منطقٍ ... يفوح به من ريحها فائقُ النشرِ[١]
يخبِّر عن سلمى وعن ذلك الحمى ... وقول لسان الحال في نظمه الدُّرِّ
سقتنا بها سلمى من الراح عندما ... بدت فأضاء الكون من جانب الخِدْرِ
أماطت حجاباً عن بهاء جمالها ... فهِمْنا سُكارى في المَهَامِهِ[٢]، القَفْرِ
نروم التسلي عن هواها ببُعدنا ... وكل جمال في الوجود بها يُغري[٣]
خليليَّ ما سلمى ونجد وما الحمى ... وما راحُها ما كاسُها ما الهوى العُذري
شربنا حُميا الحُبِّ في قدس حضرة ... وأكرم بها في حضرة القدس من خَمْرِ
لنا عُصرت من كَرْم نور جمال مَنْ ... سقانا وقد غِبنا وحِرنا فما نَدْري
سكرنا بها من شمِّها قبل شربها ... نَشَاوَى بريَّاها إلى آخر الدَّهْرِ
فيا ليلة فيها السعادات والمُنى ... لقد صغرتْ في جنبها ليلة القَدْرِ[٤]
فلما شربنا الراح في ساعة الرضا ... أتانا أغرُّ السعد بالخلع الخُضْرِ
رسولُ عناياتٍ برسم ولايةٍ ... وتصريفنا في المُلْك في البرِّ والبَحْرِ
وضاءتْ لنا أنوارُ غيبٍ وشُوهدت ... أمورٌ وأُعلمنا بها أنها تجري
وحلَّتْ بوادي طور قلبٍ معارفٌ ... زهتْ فيه كم حسناء في داخل الخِدْرِ
وكم يدفع اللَّهُ البلايا بسادةٍ ... عن الخلق في كشف الشدائد والضرِّ
فمَنْ لم بذا يؤمن فقولوا له إذا ... تجرًا على الغرِّ المشايخ بالنُّكرِ

---

(١) النشر: الرائحة الطيبة العطرة.
(٢) المهامه: الصحراء.
(٣) يشير اليافعي هنا إلى المفهوم الصوفي الخاص بتجلي الجمال الإلّهي في كل الكون.
(٤) أثار هذا البيت حفيظة فقهاء الحنابلة، فقاموا بالرد عليه منتصرين لفضل ليلة القدر!!

أيـا مَنْ لـه مصحـوب نفسٍ وهمـةٍ تجولان حول الحش والفـرن والقِدْرِ
دَعِ الخـوضَ فيمن فيـه روحٌ وهمـةٌ تجولان حول العرش والفِكر والذِّكْرِ
سُكـارى بمـولاهم وأنتَ بجيـفـةٍ أسيَّـان، لا والله ما السكـر كالسُّكْـرِ

وتستمر هذه القصيـدة الرائيـة ذات السبعين بيتاً، مؤكـدة فضل الأوليـاء ومكانتهم، وما سيلقـاه المنكر عليهم من ويـلات بنص الحديث القـدسي[1]، ثم تنتهي بتـوسل إلى الله بـالأوليـاء.. وفي قصيـدة أخـرى، يتنـاول اليـافعي موضوعاً صوفيًّا دقيقاً، هو المقابلة بين العلم الظاهر (الشريعة) والعلم البـاطن (الحقيقـة) وهي مسألـة اجتذبت العـديد من مؤرخي التصـوف وأعلامـه. وقد جعل اليافعي قصيدته بعنوان (عذبة المعاني الـدقيقة في التغـزل في الشريعـة والحقيقة) وفيها يقول: [الطويل]

فؤادي بعَـذْبـات المعـاني معـذَّبُ وقـلبي بـنـارٍ من قِـلاهـا مـقـلَّبُ
تعوَّض عن سلمى بُسعدى[2] ووصلُها عـزيزٌ ومَنْ لم يمنحِ الوصـل يتعبُ
مُعَنًّى فـلا من ذي ولا ذي مُـوَاصـل فبين هـوى سلمى وسُعدى مُـذبذبُ
يُلاقي العَنَا في حبهـا كي يرى الهَنَـا ومن دونهـا الأهـوالَ بـالعـزم يـركبُ
فمـا وصلها الغـالي بنفسـك غـاليـاً ولا ذا على أهـل المحبـة يصعـبُ
وإنِّي وإن أصبحت عن ذاك عـاجـزاً ونـاءٍ فمحض الفضل أرجـوه يجذبُ
فكم من إشـاراتٍ لسُعـدى تضمهـا بـشـارات إسـعـادٍ لـهـا أتـرقـبُ
بهـا كم مُهنًّى كم مُعنًّـى فمُـسعـدٌ بـوصـلٍ ومُشقى بـالصـدود مُعـذَّبُ
فما كل مشغوف بسعدى من الـورى أتى خـاطبـاً عن رغبـةٍ فيـه تـرغبُ
ومدحي حُلى سُعدى الحقيقة مدحتي لسلمى الشـريعة والتمـاثيل أضـربُ

---

(١) الحديث القدسي: من آذى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب.
(٢) تشير سلمى إلى الشريعة، أما سعدى فهي رمز الحقيقة.

فمُسْتَخْـرجُ دُرَّ الحقـيقــة غــائصٌ ببحر الشريعـة فالشـريعة مطلُب[1]

.. ثم تغلب نزعة الملامتية على اليافعي، فيبتهل إلى الله راجياً فضله، ويحط من قدر النفس الأمارة بالسوء فيلومها: [الطويل]

فيـا ربّ أصلحنـا وطهِّــر قلوبنـا وطيِّب ووفقهـا لمـا هـو أصـوبُ
وزَكِّ نفـوساً جـامحات غـدتْ بنا بوادي الهوى في جانب الغيِّ تلعبُ
وللقلب أيِّــد كي بحقٍّ يــردهــا بعسكـر نـور الـروح يعلو ويغلبُ
وسامحْ بأقوالٍ بهـا صرتُ عـامراً لساني مدى عمري وقلبي مُخرَّبُ
أحسِّنُ قــولاً والفعــالُ قـبيحــةٌ فما صدقُ قـولٍ والفعالُ تكـذِّبُ
فيا ليت شعري مـا أقولُ بمـوقفٍ إذا قيلَ: كم يا يافعي النحس تكذب؟

ويتوقف اليافعي بشعره عند أروع المعاني الصوفية (المحبة) فنراه يدعـو كسائر الصوفية إلى الموت عشقاً.. فيقول في قصيدة لـه بعنوان (لبـاب اللب في مدح شهيد الحب): [الطويل]

قتيلُ الهوى في مذهب الحب والفقر بلا عوضٍ حـاشاه من طلب الأَجْـرِ
سوى رؤية المحبوب في ساعة اللقا إذا ما قتيل السيف عوِّض في الحَشْرِ
فشتَّـان مـا بين المقـامين في العُلى وبين شهيد الحب والسيف في القَدْرِ
فمـا طـالبٌ مـولى لـه طـال شـوقـه وفي حبه قد مـات خالٍ عن الصَّبْـرِ
كـطالب مـطعـوم الجنـان وشــربهـا وملبـوسها والخيـل والحور والقَصْـرِ
كفى شـرفـاً مـوت المحب صبـابــةً بمولى، وفضلاً جلَّ قدراً عن الحَصْرِ
قتيــل جـمــالٍ قــد وَدُوه بــرؤيــةٍ ووصــلٍ وقـربٍ والتنــادمِ والسِّـرِّ

---

(١) يريد اليافعي هنا أن يقول: لا مدخل إلى الحقيقة الباطنة إلا من باب الشريعة الظاهرة.

وأخيراً. . فقد رويت عن بعض رجال التصوف عبارات خطيرة مثل (أنـا الحق - سبحاني - ما في الجبة غير الله) وغير ذلك من الأقوال التي عُرفت في التصـوف باسم: الشـطحات. وهنـا يتوقف اليـافعي عند شـطح الشـاطحين، بقصيدة له يجعلها بعنوان (الدر المنضَّد في بيان حسن المقصد) فيقول معتذراً عنهم ومبيِّناً حقيقة حالهم: [الطويل]

سلامٌ على قومٍ شموس الهدى غَدَا ... بهم في الهوى سكرٌ إلى حشرهم غدا
أدار عـليهـم كـأس راح مـحـبـةٍ ... جمـالٌ سقى الأحباب لمـا لهم بـدا
بها هام بعضٌ في البـراري وبعضهم ... بــه ولــهٌ ظُـنَّ جُـنـونــاً فـقُيِّـــدا
وبعضٌ عن الأكـوان بـان وبعضهم ... بـه جـاوز الإسكـارُ حـدًّا فعـربـدا
فسـلَّ عليـه الشـرعُ سيفـاً حمى بـه ... حدوداً، فرى الحلَّاجُ[1] ماضٍ تحدَّدا
فمـات شهيـداً عنـد كم من محقِّق ... ولـم عندهم يخرج عن القـوم ملحدا
ولكن فتى بسـطام[2] مُوفًى بجـالِـهِ ... حمى عن عنـايـاتٍ عـزيـزاً مُمجَّـدا
وبعضٌ بـأمـرٍ قــولـه: قــدمي على ... رقــاب جميـع الأوليــاء مُســوَّدا[3]
وبعضٌ له التأويلُ في الشطح ظـاهرٌ ... وبعضٌ لتعــريفٍ ونُصـحٍ لِيُقْتَــدَى
وبعضٌ إلى التخـريب مـال مستَّـراً ... لكيـلا يُـرى فيـه الصـلاح فيُحمـدا
وللقــوم أغــراضٌ صحــاحٌ جميـلةٌ ... وما صدقهم يعـدو عن الحقِّ مقصدا
ملوكُ الــورى كـلُّ الملوك تهــابهم ... تــرى خـوفهم لله للخلق مُـرْعِـدا
بشــرقٍ وغـربٍ جــرَّدوا لسيــوفهم ... مقيمين بُـرهانـاً على منهـج الهـدى
إلى أنْ لهـم كــل الأئمــة سـلَّمـوا ... وجــاءوا اعتقــاداً نحــوهم وتــودُّدا

---

(١) الحلاج: هو أبو المغيث الحسين بن منصور الحلاج، المقتول ظلماً ببغداد سنة ٣٠٩ هجرية بعد محاكمة مشهورة.

(٢) فتى بسطام: هو الصوفي المشهور، أبو يزيد البسطامي المتوفى ٢٦١ هجرية.

(٣) عبارة: «قَدَمِي عَلَى رَقَبَةِ كُلِّ وَلِيٍّ» قالها الإمام عبد القادر الجيلاني المتوفى ٥٦١ هجرية.

ولـو أنهم كـانـوا على بـاطـلٍ لقـوا　　سيـوفـاً تُخلّي لحـمَ كُـلٍّ مبـدَّدا

* * *

بالإضافة إلى مؤلفات اليافعي التي ذكرناها هنا، يمكن الرجـوع بصدده إلى :

الدرر الكامنة لابن حجر ـ طبقات الشافعية للسبكي ـ طبقات الخـواص للشرجي ـ شذرات الذهب لابن العماد ـ النجـوم الزاهـرة لابن تغري بـردي ـ البدر الطالع للشوكاني ـ مفتاح السعـادة لطاش كبـرى زاده ـ روضات الجنـات للخوانساري ـ كشف الظنون لحاجي خليفة ـ هدية العارفين للبغدادي ـ معجم المؤلفين لعمر كحالة . . كما يمكن الرجوع إلى المقالة التي كتبهـا المستشرق كرنكوف عن اليافعي بدائرة المعارف الإسلامية .

بُرهان الدين بن زُقَّاعة
(المتوفى ٨١٦ هجرية)

رَأى عَقْلِـي، وَلُبِّيَ فِيـهِ حَـارا فَـأَضْرَمَ فِي صَمِيمِ القَلْبِ نَـارا
[الوافر]

تتفق المصادر التاريخية على أنه: إبراهيم بن محمد بن بهادر بن أحمد بن عبد اللّه، الشيخ الإمام العلاَّمة، بُرهان الدين أبو إسحاق القرشي النوفلي الغَزِّي الشافعي، الشهير بابن زُقَّاعَة.. هذا ما اتفقت عليه المصادر، لكنها عادت واختلفت حول هذا الرجل اختلافاً كبيراً، كما سنعرض في الصفحات التاليات.

إن أول ما يختلف فيه المؤرخون، هو تحديد العام الذي وُلد فيه ابن زُقَّاعَة.. المقريزي يقول إنه وُلد سنة ٧٤٥ هجرية، وذلك ما يؤكده السخاوي الذي يذكر المزيد من التفاصيل حين يقول: «وُلد ابن زُقَّاعة بغَزَّة، في أول [ربيع الأول] سنة خمس وأربعين وسبعمائة، كما سمعه منه شيخنا..» لكن السخاوي يعود فيتشكَّك، قائلاً: «وذكر لي مَنْ أثق به، عن مولد ابن زُقَّاعَة، غير ذلك!».

والمؤرخ الشهير، ابن تغري بردي يجعل مولد الرجل سنة ٧٢٤ هجرية، ويستدل على صحة ذلك التاريخ، بأن وفاة ابن زقاعة كانت سنة ٨١٦ هجرية، وكان قد بلغ الشيخوخة ووصل من العمر ٩٢ سنة. وبذلك فإن مولده يكون سنة ٧٢٤ هجرية، على وجه الدقة.

ويرجع الخلاف المتكرر حول تاريخ مولد أعلام الإسلام، إلى أن القرون الماضية لم يهتم أهلها بتسجيل المواليد ـ كما نفعل اليوم لدواعٍ إدارية ـ فكان الخلاف يدور حول مولد الرجال عند اشتهار أمرهم، إلا إذا تزامن مولدهم مع واقعة مشهورة، أو وفاة أحد المعروفين. . وهكذا كان تاريخنا السابق يهتم بالأعلام من الرجال دون بقية الجمهور، ويؤرخ للوفيات بدقة ولا يحدد المواليد. ولنعد إلى ما نحن بصدده، لنرى كيف عاش ابن زُقَّاعة، وما هي أشعاره. . ؟

* * *

بدأ برهان الدين حياته بغزة، واحترف في صغره صناعة «الخياطة»، لكنه انشغل أيضاً بالعلم، وتلقى من العلوم ما يتلقاه أهل زمانه، فبدأ بتعلُّم «القراءات» وفنون قراءة المصحف الشريف. . وكان شيخه في ذلك، الإمام شمس الدين الحكري (محمد بن سليمان الحكري، المقرىء الفقيه الماهر، تولَّى قضاء المدينة المنوَّرة، ثم وُلِّي قضاء القدس وغَزَّة، وناب في عدة جهات بالديار المصرية. . توفي سنة ٧٨٢ هجرية) وبعد إتقانه القراءات، درس ابن زُقَّاعَة قواعد الفقه الشافعي على يد الشيخ: بدر الدين حسن بن يوسف القونوي ـ نسبةً إلى مدينة قونية الرومية ـ الشافعي، المتوفى ٧٧٦ هجرية. كما درس ابن زُقَّاعة علم الحديث النبوي على يد شيخه نور الدين عليّ بن أحمد الفويّ المدنيّ المحدِّث، المتوفى بمصر سنة ٧٨٢ هجرية.

ولما جاء أوان دخوله أرض التصوف، التقى برهان الدين بواحد من ذرية الإمام عبد القادر الجيلاني. تلك الذرية التي انتقلت من بغداد بعد فاجعة سقوطها على يد المغول سنة ٦٥٦، لتستقر فروعها بمصر والشام وبلاد الروم[1]. وكان ممن استقروا بغزة، الشيخ عمر «حفيد» الإمام عبد القادر

---

(١) بخصوص انتشار القادرية في العالم الإسلامي، يمكن الرجوع للباب الأخير من بحثنا: الطريق =

الجيلاني.. ومن الشيخ عمر الحفيد، عرف ابن زُقَّاعة أصول الطريق الصوفي، وتعلَّم طرق مجاهدة النفس وكسر حدة شهواتها، وغير ذلك من الرياضات الروحية التي مارسها الصوفية آنذاك.. وقد كان من جملة هذه الرياضات السياحة في الأرض.

ينظر الصوفية للسياحة نظرةً خاصةً، فهم يرون ضرورة سفر المتصوف وانتقاله من موضع لآخر، حتى لا يركن إلى أرضٍ بعينها فيرتبط بها، بل يرتحل في أرض الله، غير مرتبط إلا بمولاه عَزَّ وجلَّ[1]. وقد ساح ابن زُقَّاعة على طريقة الصوفية المتجردين، فمرَّ على العديد من البلدان، وعرف الكثير من مظاهر تنوُّع الخلق بقدرة الخالق.

ويبدو أن ابن زُقَّاعة قد انشغل في ارتحالاته ـ إلى جانب كونها رياضة صوفية ـ بتحصيل العلوم والمعارف. فقد اهتمَّ بالجغرافية ومواضع البلدان، كما ألمَّ بالفلك ومواقع النجوم، كما جرت على يديه في تلك الرحلات بعضُ الكرامات.. يقول الشيخ محمد القرمي: «كنتُ يوماً في خلوةٍ، فسألتُ الله تعالى أن يبعث لي قميصاً على يد وليٍّ من أوليائه، فإذا بالشيخ برهان الدين ابن زُقَّاعة، ومعه قميص، فقال: «أعطوا هذا القميص للشيخ». وانصرف من ساعته..! ثم يروي القرمي:

«وأول ما اجتمعتُ به، في سنة تسع وتسعين، فسمعتُ من نَظْمه وفوائده، ثم اجتمعتُ به بغزة قبل تحوُّله إلى القاهرة، وسمعتُ كذلك من نظمه وفوائده، ثم كثر اجتماعنا بعد سكناه القاهرة، وقد حجَّ وجاور، وأجاز

= الصوفي وفروع القادرية بمصر.. وبخصوص فروع القادرية بالشام وفلسطين، يُراجع التادفي: قلائد الجواهر في ترجمة الشيخ عبد القادر.

(١) يعد البسطامي استثناءً لتلك القاعدة الصوفية، وكان يقول: صاحبي لا يسافر وأنا معه مقيم ـ ليس الرجل مَنْ يرحل مع القافلة، لكن الرجل مَنْ إذا وصلت القافلة، وجدته هناك!

لي رواية نَظْمه. وتصانيفه منها: القصيدة التائيـة في صفة الأرض ومـا احتوت عليـه، وكـانت أولاً خمسمـائـة بيت، ثم زاد فيهـا إلى أن تجـاوزت خمسـة آلاف. . ومن نظمه في قصيدة نبوية: [مجزوء الخفيف]

غُصْنُ بـانٍ بـطيبـةٍ[1] في حشا الصَّبِّ رَاسِخُ
مِـنْ صِبَـايَ هَـوَيْتُـهُ وأَنَـا الآنَ شَـائِـخُ
قـمـرٌ لاَحَ نُـورُه فـاستضـاءتْ فـراسخُ
عَـجَبـاً كـيفَ لَـمْ يكـنْ كـاتبـاً وهـو نَـاسِـخُ[2]
ذلَّـلتْ حيـن بَعْـثـه مـن قـريشٍ شـوامـخُ
أسـدٌ سـيـفُ ديـنـه ذابـحُ الشِّـرْكِ سَـالِـخُ
فـاتحٌ مَـطْلب الهـدى وعـلى الشِّـرْكِ صَـارِخُ
أحـمـدٌ سَيِّـدُ الـورى وبِـهِ شَـادَ شَـالِـخُ
مثـل مـا شَـادَ فـالـغٌ من قـديمٍ وفـالـخُ[3]
يـا نُـخيـلاتِ وَجْـدِهِ إنَّ دمـعـي شـمـارخ[4]

ولا شـك في أن هذه الأبيـات لا تخلو من وعورة ووحشيـة، تخالف مـا نـراه غالبـاً في الشعر الصـوفي من رقـة ولين. ولعل ذلـك يرجـع إلى قافيـة «الخاء» التي اختارهـا ابن زُقَّاعـة لهذه الأبيـات، وهي قافيـة وعرة ذات إيقـاع مزعج، جعلته يقع على الألفاظ الصادمـة. . ومع ذلـك، فهناك أبيـاتٌ أخرى لابن زقاعة، تمتاز برقة وانسياب لفظي. فمن رقيق أبياته المنسابة، قوله:

---

(١) طيبة: المدينة المنورة.

(٢) يقصد: كيف نسخ النبي الشرائع ـ والنسخ من أفعال الكتابة ـ مع أنه أُمِّيٌّ.

(٣) شـالخ وفـالغ وفـالخ: من أبنـاء نوح وآبـاء النبيِّ إبراهيم. . والإشـارة هنا، إلى ثبـوت النبـوة لمحمد ﷺ قبل خلقه البدني.

(٤) الشمارخ: قناديل كبيرة، هي أول طلع النخيل.

[الطويل]

ومِنْ عَجَبٍ أنَّ النسيمَ إذا سَـرَى   سُحيراً بِعَرْفِ البانِ والرَّنْدِ والآسِ
يعيـدُ عَلَى سَمْعي حديثَ أَحِبَّتِي   فيخـطرُ لي أنَّ الأحبَّـةَ جُـلَّاسِي

.. ولنرجع إلى وقائع حياة ابن زُقَّاعة، حيث نراه وقد عاد إلى غـزَّة بعد أن أحاط بأطـرافٍ من علوم وفنون عـدة، فعظم قـدره عند النـاس وبلغ صيته القاهرة، وصارت له مكانة عند معاصريه، حتى إنه استقدم مـراراً من غَزَّة إلى القـاهرة لحضـور المولـد النبوي الشـريف بها، تقـديراً لمكـانته.. وفي هـذه المرات، بدأت علاقته بالحكام! يقول السخاوي:

«وطار ذكره وبَعُدَ صيته في أول دولة الظاهـر برقـوق.. فلما استبـدَّ ابنه النـاصر فـرج بن برقـوق، تخصص به ابن زُقَّـاعة، وتحـول إلى القاهـرة بعـد الكائنة العظمى بدمشق، وسكن مصر على شاطىء النيل، وتقدَّم عند الناصـر جدّاً، حتى كان لا يخرج إلى الأسفار إلا بعد أن يأخذ له ابن زُقَّـاعة الـطالع، ولا يتعدى الوقت الذي عيَّنه له، فنقم عليه المؤيد، ونالته منه محنة في أوائل دولته، ثم أعرض عنه، واستمر خموله بالقاهرة حتى مات..».

ويظهر من كلام السخاوي، أن ابن زُقَّـاعة قـد وقع في المحـظور الذي طالما حَذَّر منه أقطاب التصوف، أعني الوقوف على أبـواب السلاطين.. فهـا هو ينادم الفرج بن برقوق، ويسخِّر ما تعلمه في خـدمة (الـطالع) حتى يُـرضي الحـاكم، وحتى ينالـه سخط الحاكم الآخـر، وحتى يصير مـرة أخرى مـوضعاً لاختلاف المؤرخين..

اختلف المؤرخون في قيمة ابن زُقَّاعة بعد صحبته للسلطان. فمن ناحية يصفه التقي المقريزي بأنه «كان مكثاراً مهذاراً يُؤثر عنه مخاريق وشعبذة» ومن ناحية أخـرى يقول السخـاوي: «وآخرون كـانوا يعتقـدون علمه وفضله، ومن

الصوفية مَنْ كان يزعم أنه يعلم الحرف والاسم الأعظم، بل وصفه الجمال بن ظهيرة ـ وناهيك به ـ بشيخنا الإمام العلامة شيخ الطريقة والحقيقة. . » كما تظهر بعض نواحي اختلاف المؤرخين حول ابن زُقَّاعة، في قول ابن تغري بردي: «كانت رياسته في علوم كثيرة، وله حظّ زائدٌ عند ملوك مصر، الظاهر برقوق وولده الناصر فرج، ونال من الحرمة والوجاهة ما لم ينله غيره من أبناء جنسه، بحيث إنه كان يجلس فوق قضاة القضاة؛ وقد سألتُ عنه قاضي القضاة، الحافظ شهاب الدين بن حجر، فقال: كان قد اشتمل على عقل الملك الظاهر برقوق وحظي عنده، ثم عند ولده الناصر فرج، وكان يعرف الأعشاب. ولم يُزد على ذلك. . ». وفي إجابة ابن حجر، وتعليق ابن تغري بردي، نلمح ذلك الحرج من التصريح برأيهما في ابن زُقَّاعة.

وأما من حيث شعره الصوفي، فقد ترك ابن زُقَّاعة الكثير مما لا خلاف حول جودته. . فمن أشعاره التي اشتهرت، تلك الأبيات التي يشكو فيها حيرة المحبِّ ووجده: **[الوافر]**

رَأَىٰ عَقْلي، ولُبِّيَ فيه حَارا ... فأَضْرَمَ في صَميمِ القَلْبِ نَارا
وخَلَّاني أبيتُ الليلَ مُلْقى ... عَلَى الأَعْتَابِ أَحْسِبُهُ نَهَارا
إذا لَامَ العَوَاذِلُ فيه جَهْلا ... أُصِفْهُ لهم، فينقلبوا حَيَارى
وإنْ ذكروا السلوَّ يقولُ قَلْبي: ... تَصَامَمْ عن أباطيل النصارى
وما علم العواذلُ أنَّ صبري ... وسُلْواني، قد ارتحلا وسَارا
فيا لله من وجدٍ تَوَلَّى ... على قلبي، فأعدمه القَرَارا
ومن حُبٍّ تَقَادَمَ فيه عهدي ... فأورثني عَنَاءً وانْكِسَارا
قضيتُ هواهُمُ عشرين عاماً ... وعشرينٌ ترادفها اسْتِتَارا
فَنَمَّ الدَّمْعُ من عيني فأبدى ... سرائرَ سِرِّ ما أخفي، جَهَارا

إذا مـا نسمـة البَـانَـاتِ[1] مَـرَّتْ على نجـدٍ وصَافَحَتِ العـرارا[2]
وصَـافَحَتِ الخُـزَامَ وعتقـوانـا[3] وشـيحـاً ثُـمَّ قَـبَّلَتِ الـجـدارا
جـدارَ ديـارِ مَنْ أهـوى قـديمـاً رعى الـرحمن هـاتيـك الـديـارا
أَلَا يـا لَائـمِـي دَعْـنِـي فـإنِّـي رأيتُ المـوتَ حِجًّـا واعتمـارا
فـأهـل الحبِّ قـد سكـروا ولكن صَحَـا كُـلٌّ، وفـرقتنـا سكـارى

وفي البيت الأخيـر من تلك المقطوعـة الشعريـة، يفرِّق ابن زُقَّـاعة بين الحب الصـوفي وغيره من ألـوان المحبة.. فـالمحبُّون على اختـلاف محبتهم يسكرون بمحبوبهم حيناً، ثم يصحون من سكرهم. أما الصوفي، فهو سكرانٌ أبـداً بمحبته الإلّهيـة، لا يصحو من نشـوته الأزليـة الأبديـة.. وهذا المعنى، قريبٌ مما قاله عبد الكريم الجيلي حين وصف العـاشق الصوفي - في قصيـدة النادرات - فقال: **[الطويل]**

صَحَا الناسُ مِنْ سُكْرِ الغرام ومَا صَحَا وأفْـرَقَ كُلٌّ وهـو في الحـانِ جَـامِعُ

ومن جيد شعر ابن زُقَّاعة، تلك الأبيات الغزليـة الرقيقـة التي يتغنى فيها بجمال المحبوب مستخدماً طريقة الصوفية التي تبدو في ظاهر الأمر كأنها غزلٌ في معشوقة حسية، بينما المراد الحقيقي هو جمـال الذات الإلّهيـة.. ومع أن ابن زُقَّاعة لم يكن مضطرًّا لكل هذه الرمـزية التي ربمـا اضطر إليهـا الصوفيـة السابقون عليه، إلا أنه آثر أن يسلك مسلكهم الرمزي، فيقول:

---

(١) بانات: جمع «بان» وهو من نبات البادية.
(٢) العرار: نبات طيب الرائحة.
(٣) الخزامى: نبات طيب الرائحة له زهر أحمر فوَّاح.. والعتقوان: شجر يشبه شجر الرمان، ورقه أحمر. وجميع النباتات المذكورة هنا، تكثر في نجد.

[الطويل]

وَوَرْدِيّ خـدٍّ نَـرْجِسـيِّ الـلواحِظِ ... مشايخُ علمِ السحرِ عَنْ لَحْظِهِ رووا
وَوَاوَاتُ صُـدْغيـهِ حَكَيْنَ عَقَـاربـاً ... من المِسْكِ فوق الجُلَّنَارِ قد التـووا
وَوَجْنَتُـهُ الـحمـرا تَـلُوحُ كَجَـمْـرَةٍ ... عليهـا قُلُوبُ العـاشقينَ قـد انكـووا
وَوُدِّي لَـهُ بـاقٍ ولَسْتُ بـسـامـعٍ ... لقـولِ حَسُـودٍ والعـواذلِ إنْ عَـووا
وواللهِ لا أسـلو ولـو صـرت رِمَّـةً ... فكيفَ وأَحْشَـائِي على حُبِّـهِ انـطووا

ومع ما في هـذه الأبيات من رقـة، إلا أنها لا تخلو من افتعـال وتقليد، فهو يستخدم تعبيراً تقليديـاً آنذاك «واوات الصـدغ»، ويفتعل الـوصف ويتعمد بدء كل بيت بحرف «الواو»، ثم ينافي الرقـة حتى يأتي بلفظ «رِمَّـة» في البيت الأخير. عموماً، فلسنا في معـرض نقد الشعـر، وما يهمنـا الآن هو التعـرُّف على المزيد من شعر الرجل.

يذكر المترجمون لابن زُقَّاعة هـذه الأبيات التي يتـوسل فيهـا بالحـواميم والسور السبع ـ وغير ذلك ـ آملاً أن تتفجَّر في قلبه ينابيع المحبة.. فيقول:

[الوافر]

سَـأَلْتُـكَ بِـالحَـوَامِيـمِ العظيمـهْ ... وبـالسبـعِ المطـوَّلـةِ القـديمـهْ
وبـالـلاَّميـنِ والفَـرضِ المبـدَّا ... بِـهِ قَبْـلَ الحـروفِ المستقيمـهْ
وبـالقطـب الكبيـر وصَـاحِبَيْـهِ[1] ... وبـالأرض المقـدَّسـةِ الكـريمـهْ
وبـالغصـنِ الـذي عَكَفَـتْ عَلَيْـهِ ... طيور قلوبِ أصحاب العزيمهْ
وبالمسطور في رِقِّ المعاني[2] ... وبـالمنشـورِ فـي يـومِ الـوليمـهْ
وبـالكهـف الـذي قـد حَـلَّ فيه ... أبــو فتيــانهــا ورَأَى رقيمــهْ
وبالمعمورِ من زمن التصابي[3] ... بـأحجـار بهجـرتهـا مُقيمـهْ:

(١) الإشارة هنا إلى القطب والإمامين، وهما قمة الهرم التنظيمي للولاية عند الصوفية المتأخرين.
(٢) الإشارة إلى «اللوح المحفوظ».
(٣) البيت المعمور، بيت في السماء يقابل الكعبة.. وزمن التصابي: عالم الذَّرِّ.

تفجَّر من فؤادي عينَ حُبٍّ   تُروِّي في مَسَارِجِهَا صَميمَهْ

ومريدو ابن زُقَّاعة وتلاميذه، كانوا يعتنون بهذه الأبيات، ويؤكدون أن فيها الاسم الأعظم! ذلك الاسم الذي ذهب بعض المتصوفة إلى أنه الاسم المتمم للأسماء الحسنى التسعة والتسعين، فهو الاسم المائة الذي لا يعرفه إلا خاصة الأولياء، ويمكن لمن يعرفه أن يتصرف في الوجود بهذا الاسم. ومع أن بعض أقطاب التصوف ـ كالجيلاني ـ أكدوا أن «الاسم الأعظم» لا يتصرف في الوجود بخاصيته، بل بصدق المتلفظ به. إلا أن المتصوفة في عصور الضعف كانوا يفتشون عن هذا الاسم، ظنًّا منهم بأنه قادر على التصرف في الموجودات والتأثير فيها.. وربما كان البحث عن هذا الاسم هو السر وراء اهتمام الصوفية ـ بعد القرن السابع الهجري ـ بالعلوم الخفية، وهو اهتمام يتردد صداه عند ابن زُقَّاعة، الذي وصفه السخاوي بأنه كان عارفاً بالأوفاق وما يتعلَّق بعلم الحرف(١).. فإذا كان كبار المتصوفة من أمثال «ابن عربي» قد تناولوا الحروف تناولاً تأملياً، فإن المتأخرين قد نظروا إلى الحروف نظرة نفعية تحاول تحقيق غير الممكن بمعرفة سر الحرف وبامتلاك الاسم الأعظم الذي يعد صياغة أخرى لفكرة مصباح علاء الدين!

ولابن زُقَّاعة أشعارٌ ليست من الشعر الصوفي، فقد مَرَّ علينا أنه ألَّف قصيدة تائية بلغت خمسة آلاف بيت، كان موضوعها الجغرافيا ومواقع البلدان. كما ذكرنا له أبيات في المديح، تدخل في شعر المدائح النبوية أكثر

---

(١) علم الحروف كما يعرفه المتأخرون، هو: علم باحث في خواص الحروف إفراداً وتركيباً، وموضوعه الحروف الهجائية، ومادته الأوفاق والتراكيب.. وغايته التصرف على وجه يحصل به المطلوب إيقاعاً وانتزاعاً، ومرتبته بعد الروحانيات والفلك والتنجيم!!

مما تدخل في الشعر الصوفي . . كذلك نجد لـه بعض الأبيات في الثنـاء على معاصريه، كقوله في مدح قاضي القضاة برهان الدين ابن جماعة: **[الوافر]**

لِـمِـلَّةِ أحـمـدٍ بـرهـانُ ديـنٍ   يقـومُ بحفـظهـا في كُـلِّ سـاعـةْ
فَمِتْ في حُبِّـه إن شئت تحـيـا   فـذا البرهـان قـد أحيـا جمـاعـةْ

ومن الـواضح هنـا أن ابن زُقَّاعـة يستغل الجنـاس والتشابـه اللفظي بين اسم الرجل ومعناه لكن هذه الأبيات، وما يشاكلها، لا تـدخل في إطـار الشعر الصوفي . . وإن كانت تدلُّ على بعض الجوانب من شخصية ابن زُقَّاعة[1].

ويبدو أن الشيخ برهان الدين بن زُقَّاعة قد خُتم لـه بخير. فقـد رُوي أنه بعدما أعرض عنه المؤيـد وأغضى عن سوابقـه، اعتزل النـاس، وجاور بمكـة زماناً، ثم عاد ليتوفى في القاهرة.

وترك ابن زُقَّاعة ـ غير الشعر ـ بعض المؤلفات، مثـل: دوحة الـورد في معرفة النرد ـ تعريب التعجيم في حرف الجيم.

* * *

انظر ترجمة ابن زُقَّاعة ومقتطفات أشعاره في:

الضوء اللامع للسخاوي ـ المنهـل الصافي لابن تغـري بردي ـ شذرات الذهب.

---

(١) لم يؤثـر عن الصوفيـة مدحهم للمعـاصرين شعـراً. . اللهم إلا مدح الـواحد منهم لشيخـه في الطريق.

عبد الهادي السُّودي اليمني

(المتوفى ٩٣٢ هجرية)

لَا تَحْسَبُوا يَا قَوْمُ قَلْبِيَ خَافِقاً   لَكِنَّهُ طَرَباً عَلَيْهِ يُصَفِّقُ
[الوافر]

بدأ التصوف في اليمن منذ وقت مبكر، واحتلت هذه البلاد مكانة روحية متميزة في الفجر الأول للإسلام، وهي المكانة التي تعكسها مجموعة من الأحاديث النبوية، منها: الإيمان يمان، والحكمة يمانية.. وإني لأجد نَفَس الرحمن يأتيني من قبل اليمن.

وعلى أرض اليمن، عاش جماعة من مشاهير أهل الطريق الصوفي، وكأنهم قد آثروا الانزواء في هذه البلاد البعيدة عن صخب الحياة العارمة في العراق والشام ومصر، فكان تصوفهم هناك عميقاً وموغلاً في التفرد. ومن أسماء الصوفية في اليمن عبر تاريخه الطويل نجد (أويس بن عامر القرني، أبو الغيث بن جميل، شرف الدين الجبرتي، أحمد الرداد، حاتم الأهدل، آل العيدروس..). ونجد أيضاً الهادي اليمني.

بدأ أبو عبد الله محمد بن علي بن إبراهيم السُّودي(١)، الشهير بالهادي اليمني، بتعلم فنون اللغة والتاريخ وعلوم الدين. ثم دخل الطريق بعد واقعة تأمُّلية! فقد كان يدرس الفقه على يد بعض العلماء، فتوقف عند المسألة الفقهية (العبد لا يملك شيئاً مع سيده) فظل يسأل أستاذه في هذه المسألة،

(١) السودي: نسبة إلى قرية تسمى (سودة شضب) بنواحي صنعاء.

ويحمل كل الإجابات على الصلة بين الإنسان وربه، حتى اعترته هيبة عظيمة نزلت بقلبه، وأخذه جذب شديد إلى آفاق الحضرة الإلّهية، فوجد نفسه يسير على درب الصوفية حتى آخر عمره.. وهكذا هجر الهادي اليمني كل العلوم إلا العلم بالله عز وجل، لذا نراه يقول: [البسيط]

وانس العلوم، وما قد كنت تكتبه   فمحوه واجبٌ من كل مكتتبِ[1]

وكان الهادي اليمني يقوم بالرياضات الروحية كالتهجد والصوم الكثير والجوع والسهر.. مما جعله يولع بشرب القهوة، فكان يطبخها على النار بنفسه، ويُكثر من شربها في كل وقت، وكان إذا جاءته هدية، أوقد بها النار تحت القهوة! وقد روى المؤرخون ذلك دون أن يفطنوا للدلالة الرمزية لهذا المسلك، فالهادي اليمني يريد أن يقول بهذا الفعل: إن كلَّ متاع الحياة يجب أن يسخر لما يقرِّب من الله. وقد كانت القهوة تعينه على السهر والتهجد والتأمل الليلي في ملكوت الله، ولذا وجد أن كل ما عداها من المتع الدنيوية لا يستحق إلا النار التي تنضجها.

ويروي المؤرخ اليمني عبد القادر العيدروس في كتابه (النور السافر) بعض كرامات الشيخ في مسألة القهوة هذه.. فقد قيل إن السلطان عامر بن عبد الوهاب، بعث إلى الهادي اليمني بثوب نفيس، فألقاه في النار التي تحت إناء القهوة! وبلغ السلطان ذلك فغضب غضباً شديداً، وأرسل يطلب منه الثوب، فأدخل الهادي اليمني يده في النار، وأخرج الثوب منها ودفعه إليه. وأيًّا ما كان من صدق هذه الحكاية، فالشاهد هنا أن الهادي اليمني لم يكن يلتفت لزخرف الحياة الدنيا. ولقد رويت عن العديد من رجال التصوف

---

(١) هناك شرح مطول لهذا البيت، وضعه العيدروس ضمن كتابه (النور السافر).

حكـايات قـريبة من ذلـك، تدل كلهـا على صدق زهـدهم. . المهم أن ولـع الهادي السودي بالقهوة، صار دليلاً على فضلها عند من جـاءوا بعده، فهـا هو عبد المعطي باكثير يقول في موشحة:

قهوة البن جل مقصودي في الخـفـا والـعـلن
هام فيها إمامنا السودي قــطب أهــل الـيـمـن
وطبخهـا بـالنـد والعـودي[1] وبغــالــي الثمــن

ونـال السـودي اليمني شهـرة كبيـرة في حيـاتـه، ووصف بـأنـه (قـطب العارفين وسلطان العاشقين) وهي ألقاب تُخلع دوماً على كبار رجال التصوف. وكـانت وفاتـه بمدينـة تعز، وبُني على قبـره قبة عـظيمة جعلت مـدفنـه مـزاراً مشهـوراً. ولم يترك من ذريـة إلا ولدين، مـات الأول في حياة والـده، وعاش الآخر بعده زمناً وتولى قضـاء تعز حتى استـولى عليها العثمـانيون، فنفـوه إلى مصر، فمات هناك في حدود سنة ٩٦٠ هجرية.

ونـأتي للشعر عنـد الهادي السـودي اليمني، فنجـد المؤرخين يشبِّهـون شعره بأشعار التلمساني الـرقيقة، ويـطلقون عليـه لقب (فارضي اليمن) نسبـةً إلى الشاعر الصوفي المصري الأشهر عمر بن الفارض. وكانت علاقة السودي بالشعر غريبة، فهو لا يعرف الشعر إلا في حالات الجـذب الروحي الشـديد، فـإذا غلب عليه الجـذبُ، أخذ يكتب أشعـاراً بالفحم فـوق الجـدران، وبعـد إفاقته من جَذْبته يمحـو ما كتبـه[2]. . فانتبـه مريـدوه لذلـك، فكانـوا يبادرون بكتـابة مـا يجدونـه على الجدران قبـل أن يزيله هـو، فجمعوا بـذلك ديـوانـه

(١) العود والند: نباتات عطرية تستخدم بخوراً.

(٢) يحكي أحد المنشدين المعاصرين للشيـخ، أنه أنشـد بين يديـه قصيدة من نـظمه، فـطرب لها وتمايل، ثم سأل عن قائلها! فقيل له: إنها من تأليفه هو. . فأنكر ذلك قائلاً: حاشا، مـا قلت شيئاً.

الشعري الذي بقي إلى يومنا هذا مخطوطاً، والذي نود يوماً أن ننشره في طبعة محققة، كي نتعرف على طبيعة تصوف صاحبه، وبالتالي طبيعة التصوف في اليمن إبان القرن العاشر الهجري.

ومن شعره الذي أنقذه مريدوه، قوله: [الكامل]

يا مُقعد العزمات يا عبد الهوى ... يا بانياً والبينُ يهدم ما بَنى
زُرني أعلمك الهوى وفنونه ... واشتمَّ أنفاسي يزلْ عنك العَنا
فأنا إمام جيوشه وجنوده ... وأنا الدليل لهم على كنز الغِنى
لي في الغرام حقائقٌ ودقائق ... مَنْ نالها أو بعضها نال الهَنا
يا نازلين على مِنى وحياتكم ... ليس القتيل بحبكم إلا أنا
لكُمُ الجمال بديعه وغريبه ... والحُبُّ لي ما شطَّ منه وما دَنا
لا تحسبوني خائفاً من هجركم ... أو راجياً لدوام وصلٍ يُجتنى
هيهات لي شغل بكم عن ذا وذا ... وبكم عليكم في الهوى إذلالنا

ثم ينتقل السودي اليمني بشعره من هذه الأبيات الغزلية في معنى المحبة، إلى أبيات أخرى يتناول فيها الفكرة الصوفية الخاصة بحيرة الخلق وغربتهم عن الله، مع أنه تعالى الموجود الوحيد في الكون، وما عداه مجرد أوهام يظنها الخلق حقائق، وهي في الحقيقة أوهام الحجب التي تغطي بصيرة الجاهلين بالله. يقول الشيخ في قصيدة له ذاكراً حيرته أمام الحقيقة الإلّهية:

[المديد]

ليس عند الخلق من خَبَرِ ... عنك يا أغلوطة الفِكَرِ
تاهت الألبابُ فيك وما ... ميَّزت ورداً من الصَّدُرِ[1]

---

(١) عجز البيت مضطرب الوزن.

حيرة عمَّت فأيُّ فتى		رام عرفاناً ولم يَحِرِ
عَميتْ أنباء ذاك على		كل مَنْ في البدو والحضرِ
وغداً يسألُ بعضهم		عنك بعضاً علَّ مِن ظَفرِ
فانثنوا واللهِ ما وقعوا		لا على عينٍ ولا أثرِ
بل عظيم القوم مطلبه		شدةُ التحيير والحصرِ
كيف حاروا فيك واعجباً		يا مُنى سمعي ويا بصرِي
بالظهور الصرف محتجبٌ		أنت هذا صحَّ في الخبرِ
لو تلاشت عنهُمُ ظُلمٌ		وانمحوا عن عالم الصورِ
شاهدوا معناك منبسطاً		سارياً في سائر الفِطَرِ
ودروا أن الحجاب هُمُ		عن شهود المنظر النضرِ
وقضى يعقوب حاجته		وانتهى زيدٌ إلى الوَطَرِ

ثم يعاود الشيخ بث أشواقه للذات الإلٓهية، التي يكنِّي عنها بأسماء سعاد وليلى، فيشرح مواجيد روحه التي رققتها المحبة ثم هدها الهجر..

يقول المحب اليمني: [الخفيف]

عذَّبتني بالمطل منها سعاد		وبراني وهدَّ ركني البعادُ
وجفاني من بعد ما هجرتني		طِيب عيشي وزار جفني السهادُ
لو تراني أُسامرُ النجم ليلاً		علَّ ليلى يكون منها افتقادُ
يا أخلائي أصلُ سقميَ أنتم		ولقاكم هو الشفا والمرادُ
عاملوني باللطف يا أهل ودي		لاحظوني ما قد مضى لا يعادُ
ذاك أهنى الوصال لا شك فيه		هكذا هكذا يكون الودادُ
أنا مملوككم على كل حالٍ		ومريضٌ فهل تروْني أُعادُ
يا أهيل الحمى حللتم بقلبي		وإليكم يحنُّ مِنِّي الفؤادُ
كل كُلِّي بحبكم مستهامٌ		والسويدا تشتاقكم والسوادُ

لا يحقّ البكاء إلا عليكم وعلى وصلكم يليق الجهادُ[1]

ويبدو أن بعضاً من نفحات الوصال هبت على قلب العاشق الرباني، فهامت روحه بالوصل، فغنَّى: [مخلع البسيط]

لولاك يا زينة الوجود ما طاب عيشي ولا وجودي
ولا شجاني وميضُ برقٍ ونقرُ دفٍّ وصوتُ عودِ
أنت الذي هِمتُ في هواه وليلة الوصلِ منك عيدي
بالله زرني فدتك روحي يكفي من الهجر والصدود
ما أصعب الهجر من حبيب لا سيما للشجي العميد
وما أُحيلا وصال ليلي ليلاً على السفح من زَرُود[2]
فيا ليالي اللقا علينا عودي ليخضرَّ منك عودي

ثم تزداد لفحات سوانح الوصال، فتعصف بوجدان المحب وبوجوده الهزيل، فيهتز طرباً، ويدعو الكون كله لرقصة اللقاء.. فيقول في أبيات له: [من الوافر]

لقد غَنَّى الحبيبُ لكلِ صَبٍّ فأين الراقصونَ على الغناء
أيشدو مَنْ تحبُّ وأنت قاسٍ وترضى بالقساوة والعناء
إذا ما كنتَ صبّاً مستهاماً فمِلْ طرباً كغصنٍ في هواء
وقُلْ للعاذلين دعوا ملامي فإن العذل عندي كالهباء

---

(١) قام عبد القادر العيدروس بشرح هذه القصيدة في كتابه (جواهر الأحياء وإمدادات الأولياء) وسمى الشرح: فتح الله الجواد بشرح عذبتني بالمطل منها سعاد.

(٢) زرود: منطقة رملية بين الثعلبية والخزيمية بطريق الحاج من الكوفة، سميت بزرود، أي بلوع، لابتلاعها الماء عند المطر (معجم البلدان لياقوت الحموي ٣/١٣٩).

أفي أهـل اللوى وعـريب نجـدٍ أطيعكم وقـد سكنـوا حشـائي
مـعـاذ الله أن أصـغـي إلـيـكـم نعـمْ أُلـقـي مـلامـكـمُ ورائـي

وأخيراً.. يضع السودي اليمني شهادة واعترافاً بأنه لن يقلع يوماً عن الحب الساكن في أحشائه، وأنه لم يعرف السكر من الخمر الحسية المحرَّمة وإنما سكر من خمر جمال المحبوب: [الوافر]

مـعـاذ الله أن أسـلو عُـريـبـاً هـواهم في الحشا أرسى خيامه
ثملتُ بهم ومـا خـامـرتُ خمـراً ولا دانـيـتُ أدنـان الـمـدامـه
رعـى الله الأبـيـرق والـمُـصـلى وبان[1] الحيِّ ما سجعت حمامه
فتلك مـواطن الصَـبِّ المُـعنَّى بهـا الأرواح صـارت مُسْتهـامـه
عـلى عُـربٍ بهـا مِـنّي سـلامٌ يكـون المسـك من قِبَلي ختـامـه

* * *

بخصوص عبد الهادي السودي وشعره، يمكن الرجوع إلى:
- تاريخ النور السافر عن أخبار القرن العاشر، للعيدروس.
- ديوان عبد الهادي السودي (مخطوط).
- شرح النابلسي على قصيدة النادرات العينية (مخطوط).
- شذرات الذهب.

---

(١) الأبيرق والمُصلى: موضعان بأرض الحجاز. والبان: شجر من أشجار البادية.

أبو الوفا الشرقاوي
(المتوفى ١٣٨٠ هجرية)

بُـرُوقُ جَمَالِهِمْ لَمَعَتْ لِعَيْنِي فَـأَوْرَثَنِي تَجَلِّيهَا اصْطِـلَامَا
[الوافر]

في صعيد مصر، وبالتحديد في مدينـة «قنا» واسـطة عقد وادي النيـل، ازدهرت الطريقة الخلوتية ـ إحدى الطرق الصوفية العريقة ـ على يـد اثنين من كبـار المشايـخ، هما الشيـخ أحمد الشـرقاوي، وولـده: أبو الـوفا الشـرقاوي الخلوتي.

وأفضـل مدخـل للشيـخ أبي الـوفـا، هـو سيـرة والـده وشيخـه «أحمـد الشرقاوي». فهذه السيرة تكشف عن طبيعة التكوين الروحي والإطار الصـوفي الذي تجلَّت فيه صورة الابن.. يترجم الوالد لنفسه، فيقول:

«لما كان النسب الـروحاني لا بـد أن يكون معلومـاً بين التلامـذة، كما حقَّقه العارفون والسادة الجهابذة. أردتُ أن أذكر هذا النسب الشـريف، وأبيِّن هذا العقد المنيف. فقلتُ وأنا الفقير أحمد بن شرقاوي: اعلم أنه لم يجتمـع لي العهـد والتلقين، إلا على إمام زمـانـه.. السيـد أحمـد الخضيـري. وقـد حصل لي قبل الاجتماع عليه، صورة التلقين على بعض مشايخ هذا العصـر، ولكنها مختلَّة ليست على الكيفية المأثورة. ثم أقمتُ معـه مدةً طـويلة، وكنتُ فيها متى ذُكر الأستاذ ـ أو مرَّ في فكـري ـ أشرقتْ في قلبي أنـوارُهُ، وارتسمت في لوح لُبِّي أطوارُهُ».

ويحكي الوالد في ترجمته الذاتية، كيف كان لقاؤه الأول بالشيخ أحمد الخضيري: «رأيتُ في بعض الليالي أو الأيام، حضرته عليه الصلاة والسلام، وقد أمرني بالإرشاد.. فانتبهتُ وقد أخذني العجب، فإني لم يحصل لي صحيح الترقِّي المعلوم على أستاذ. فمكثتُ هنيهةً في حيرة، وإذا زعيمُ التوجه إلى الأستاذ قد قادني، فعرفتُ أنه ـ الشيخ الخضيري ـ أبو الروح، وأنه منبع الترقِّي والفتوح، وأنه الشيخ القَبْلي في الحقيقة، وهو المعول عليه عند أهل الطريقة والحقيقة. وكان معي من الإخوان، مَنْ تدلُّ على الله عبارته. فما زلنا سائرين حتى دخلنا بلدة طهطا[1] ـ أتاح الله لها كل خير ـ فسألنا عن حضرته، فقيل لنا: ذَهَبَ لصلاة الجمعة في المسجد الفلاني.. فلما دخلنا من باب ذلك المسجد، فإذا الأستاذ جالسٌ كأنه كوكبٌ متوقِّدٌ.. ومما حصل للفقير، أنني بعد أن أجلسني بين يديه، ورمق فيَّ بعينيه، ثم غمضهما وشرع في الذكر بالمدِّ المعلوم، صرت كأنني أعالج غمرات الموت، وكدت لا أجيبه من شدة هذه الغمرات وهول تلك السكرات، ثم قوَّاني الحق تعالى فأجبته ـ رضي الله عنه ـ بصوتٍ رقيق جدًّا لا يكاد يسمع. ومن ذلك الوقت، فتح الأستاذ الباب، ولم يرد طارقاً لتلك الأبواب، وانتشرت طريقته في البلاد».

هكذا تلقَّى الشيخ أحمد الشرقاوي الطريق، وتلقن الأسماء السبعة في الطريقة الخلوتية (قويّ ـ الله ـ هو ـ حق ـ حيّ ـ قيوم ـ قهار) على يد الشيخ الخضيري، وكان ذلك سنة ١٢٨١ هجرية.. وفي التاسع عشر من ذي القعدة سنة ١٣١٦ هجرية، توفي الشيخ أحمد الشرقاوي بعد حياة صوفية حافلة،

(١) بلدة مشهورة بمحافظة سوهاج بصعيد مصر، خرج منها أمثال الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي، وغيره من أهل العلم والفضل.

كانت داره خلالها المأوى والملاذ للإخوان. وقد ترك من بعده ثلاثة من الأبناء، أشهرهم: أبو الوفا الشرقاوي.

* * *

وُلد الشيخ أبو الوفا الشرقاوي في السابع عشر من جمادى الآخرة سنة ١٢٩٦ هجرية، ونشأ بقرية «دير سوادة» بقنا، واشتغل بالعلم الشرعي من صغره، وأخذ الطريق عن والده، ثم صار شيخاً للخلوتية. ووضع الشيخ أبو الوفا أول مؤلفاته (مصباح الأرواح في سلوك طريق الفتاح) وهو في الرابعة والعشرين من عمره.

وعلى خلاف ما يظنه البعض من اعتزال الصوفية عن واقعهم، وما يقال عن اهتمام المتصوفة بالخلاص الفردي؛ كان الشيخ أبو الوفا الشرقاوي مهموماً بقضية بلاده، مشغولاً بواقعها.. يظهر ذلك من مواقفه الوطنية المعارضة للاستعمار الإنجليزي، وانشغاله في صدر شبابه بالأحداث الكبْرى في العالم ـ كالحرب العالمية الأولى ـ وتأييده للحركات التحررية في مصر. وقد استضاف الشيخ أبو الوفا، الزعيم المصري «سعد زغلول» حين زار الصعيد في رحلة جهاد كانت الحكومة آنذاك لا تنظر إليها بعين الرضا، بل كانت تدبِّر المكائد لإفشالها؛ فإذا بالشيخ أبي الوفا يتحدى رغبة الحكومة ويقف بجوار ثورة ١٩١٩ معلناً عن تأييده الكامل للزعيم التحرري «سعد زغلول» ومساهماً في إنجاح رحلته الوطنية إلى الصعيد.

وقد ظهر اهتمام الشيخ أبي الوفا بواقع مصر، في قصيدة همزية صريحة، تقول: [الكامل]

أَفَمُسْلِمُونَ وَأُمَّةٌ أَشْلاءُ ... لا ميِّتون ولا هُمُ أَحْياءُ
يَهِنُونَ والإسلامُ أشرف مَنْزلاً ... ومحمَّدٌ مما لَقُوه بَراءُ

قَـدْ أثْقلوا الإسـلامَ عَنْ وَثْبَـاتِـهِ ... وهُـمُ عـليـه مـعـرَّةٌ وبَـلاءُ
في كـل دهـرٍ سَقْـطَةٌ عُـرِفتْ لهم ... وبِـكُـلِّ قـطرٍ منـهُـمُ غـوْغَـاءُ
دَاسَتْهُـمُ أمـمٌ تَـجِـدُّ إلـى الـعـلا ... فـي الأرض لم يـلحق بـهـا إعيـاءُ
وهُمُ إذا قَـرَعَ العصـا ذو مَـطْمـعٍ ... ضُـربـتْ عـليـهم ذِلَّـةٌ وشـقـاءُ
أو كُـلَّمـا مَسَّـتْهُـمُ يَـدُ غـاصـبٍ ... سقـطوا، كـذلـك يفعـل الجبنـاءُ
فكـأنهـم لم يَـسْـرِ في أعـراقـهم ... مـن سـابقـيهـم غَـيْـرَةٌ وإبَـاءُ
لا يـظفـرنَّ بمجـدهم وحيـاتـهم ... قـومٌ بِـبَـذْلِ نفـوسـهم بـخـلاءُ

.. وبعـد أن يشيـر الشيـخ إلى حـال المسلمين بعـامـة، يخص مصـر بالخطاب، فيقول في ذات القصيدة: [الكامل]

وبمصـرَ قَـوْمٌ يـا لمصـرَ وأرْضَهـا ... منهمْ وهُمْ زُعِـمُـوا لهـا أبْنَـاءُ
لبسـوا لها ثـوب الصـديق وربمـا ... قـد كـان خيـراً منهُمُ الأعْـدَاءُ
عبثتْ أكفُّ الـطامعين بهـا فَلَمْ ... تَعْبَـأْ وتَـرْفَـعْ رأسهـا الـرؤسـاءُ
أنَهَتْهُمُ عن بَـرِّ مصـر عُقُـولُهُمْ ... فَلْيَهْنِ مصـر أولئـك العُقَـلاءُ
لا تُـغْـنينَّ عـلومهـم شيئـاً وهُـمْ ... بـطريق حفظ كيـانهم جهـلاءُ
فـالعلم حقًّـا عِلْمُ مـا يُبنى بـه ... بـيـن الأنـام سـيـادةٌ وعـلاءُ
أوُلاَةَ مـصـرَ، وأنتُـمُ أبنـاؤهـا ... لـم يبـق فيـكـم لـلبـلاء رَجَـاءُ
أغـريتُمُ الخـطبَ الجسيمَ ونِمْتُمُ ... فَـلَنـومُ عـافيـةٍ لـكـم وهـنـاءُ
أرأيـتُمُ أُمَـمـاً تبـاعُ وتُـشتـرى ... هـا أنـتُـمُ بـيـعٌ بـكـم وشـراءُ

.. ثم تبلغ سخرية الشيخ المدى، حين يتوجَّه إلى النائمين قائلاً:

خُـونـوا بـلادكُمُ ولا تُبْقـوا بهـا ... رَمَقـاً، وهل بـاقٍ بمصر ذَمَـاءُ(١)
فبمثلكم تَخْزَى الشعوبُ ومثلكم ... تشقـى بـه الأوطـانُ والأرجـاءُ

---

(١) الذماء: بقية الروح ورمقها الأخير.

وللشيخ قصائد أخرى على شاكلة السابقة، تحكي مرارته من واقع بلاده وتهاون أهل البلاد في حقوقها عليهم، وهي مرارة لا تزال في الحلق إلى اليوم.. فمن قصائده الأخرى في هذا الأمر، أبياتٌ منها قوله:

[الطويل]

وقَدْ أصبح الإسلامُ ـ يا مصر ـ أهله ... مَعِيشتهُمْ ضَنْكَى وعَيْشهُمُ مُرُّ
وما العيشُ أن تحيا على الهون آكلاً ... كما تأكل الأنعامُ تَغْذَى وتَجْتَرُّ
ولكنما العيشُ الحياة على هدىً ... إذا حَاطَها بالسُّؤْدَدِ المَجْدُ والفَخْرُ

وفي مرحلة من مراحل التطور الروحي في حياة الشيخ أبي الوفا الشرقاوي، نراه وقد تاقت نفسه للمجاورة في المدينة المنورة، حيث يصفو الحال وترق النفس بقرب الحضرة النبوية الشريفة. فاقتنى الشيخ منزلاً بإحدى ضواحي المدينة المنورة ـ جهة العوالي ـ وشد الرحال إلى هناك مع نفر من خلص أصحابه.. وهناك، قال شعراً في الحبيب المصطفى: [الكامل]

يُمْنَاكَ تَهْمِي بالعَطَا والجود ... وسما بنسبته إليك الجودُ
يا من إذا أوفى ببابك طامعٌ ... حِيزَتْ له الآمال وهي شرودُ
يا نورَ عَيْنِ الكونِ سِرُّك في الورى ... سارٍ ونُورك ساطعٌ مشهودُ
هبطتْ لساحتك الملائكُ خُشَّعا ... وأتوا حماك وظِلُّك الممدودُ
وسعى إليك الأنبياءُ بجمعهم ... والرُّسْلُ حولك جُثَّمٌ وقُعُودُ
يَكِفُ الندى من راحتيك عليهم ... ونداك فيهم غامرٌ ومزيدُ
والكونُ دُونَهُمُ يمدُّ لكم يداً ... سعدتْ يداه فإنه مَرْفُودُ
ولقد مددتُ يدي لباب عطائكم ... أفدون بابكُمُ يُرى مَرْدودُ
لا والذي رفع السماء وشادها ... وحباك كُلَّ الفضلِ وهو شهيدُ
أصبحتُ أرتعُ في جوارك آمناً ... أَيْديكَ تُمْطِرُني وأنت ودودُ
ووقفتُ أطماعي على أعتابكم ... ولنعمَ هذا الموقف المحمودُ

وصَفَتْ أويقـاتي بـطِيبـةَ وهي لي ... أمـنٌ وعـيشٌ مُـخْـصِـبٌ ورغـيـدُ
واخضـرَّ عـودي في حمـاك وإنـه ... قِمْنٌ[1] بـأن يخضـرَّ فيـه العـودُ
أُيـراع لِي من بعـد ذلـك خـاطـرٌ ... وأُزادُ عنـك وحَـوْضُكَ الموروُدُ[2]
حـاشـا ولكنْ بعضُ أمـري رَابَني ... فـطفـقـتُ أُبـداً حـائـراً وأعـودُ
هـذا الرحيـل بَـدَا وطيبـة لي هـوى ... وغـدا لنـاعقِ بَيْنِنَـا[3] تـرديـدُ
فـارتعتُ لولا وَسْعُ فضـلك مُخبـري ... أن الـجـوارَ وإنْ نـأيـتُ يـعـودُ
مـع أنني فـي ذات حبـك راحـلٌ ... ولـوصـل مـا بيـديكُـمُ معـقـودُ
أرجـو بـه قُـرْبِي لـديـك وإننـي ... أبـغـي رضـاك بـرحـلتي وأُزيـدُ
وذكتْ لبعـديَ عن معـاهـد طيبـةٍ ... نـارٌ لـهـا بيـن الـضـلوعِ وقـودُ
قـد كنتُ أحـذره وكيف يـطيقـه ... قَـلْبٌ يـمـزِّقـه الـهـوى ويـعـيـدُ
وحُشَاشَـةٍ بِثَـرى المـدينة وَجْـدُهَـا ... وحَـشـىً بـطـيبـةَ هـائـمٌ مـفـؤودُ
أهـوى معـاهـدهـا ولي كَلَفٌ بهـا ... وهي المـنى، لا عـالـجٌ وزرودُ[4]
تَبْيَـضُّ لـي فيهـا وجـوهُ ديـاجـري ... ووجـوه أيـامِ ابتعـاديَ سُـود
فلئـن أُعيـدتْ لـي أويقـاتـي بهـا ... فجميـع أيـامـي بقـربـك عِيـدُ

وقد وضع الشيخ حسنين مخلوف شرحاً على هذه القصيدة التي عُرفت باسم «مدحة نبوية» فأبان عن مراميها الصوفية وتعلقاتها القلبية بالحضرة النبوية.. والذي يظهر لنا من سياق القصيدة، أن الشيخ أبا الوفا الشرقاوي قد ألَّفها بعد عودته لمصر! ذلك أن مريديه وأحبابه ألحوا عليه في العودة إلى بلدته بالصعيد، لينشر العلم ويوالي الإخوان بعنايته، فعزَّ عليه فراق المدينة المنورة التي خلصت فيها أوقاته وصفت أحواله.. لكنه في النهاية آثر خير

(١) قمن: خليق.
(٢) الإشارة إلى «حوض محمد» الذي يشرب منه الأتقياء في الآخرة.
(٣) البين: البعاد.
(٤) عالج وزرود: موضعان بالحجاز.

الجماعة وضحى بلذة الذات في سبيل المجموع، فعاد لمصر ليكمل مشواره الداعي إلى الله، تاركاً قلبه بجوار الحبيب. وقد ظهرت لوعته هذه، في أبيات «المدحة النبوية» حين أشار إلى النار التي ذكت بين الضلوع بعد فراق طيبة، كما ظهر اشتياقه في إشارته إلى تعلُّق حشاه بثرى المدينة. . وفي القصيدة أبيات أخرى، تعكس أثر البيئة! وتترجم انشغاله مرةً أخرى بأمر المسلمين الذين عاش واقعهم بعد عودته. يقول الشيخ : [الكامل]

وصلاحُ أمرِ الدين والدنيا لنا ... ولأهل وُدِّيَ أرتجي وأُريدُ
وسلامةٌ من شَرٍّ وقتٍ قد نما ... وفكاكُ روح أوثقته قيودُ
والختمُ بالحسنى وذاك مُؤَمَّلي ... وبه الفتى يوم القيام يسود

وهذا الحال الذي مرَّ بالشيخ الشرقاوي بعد عام كامل قضاه في المدينة مجاوراً، يذكرنا بحال سلطان العاشقين «ابن الفارض» الذي مَرَّ بنفس الأمر، حين جاور بالحجاز زمناً، ثم عاد لمصر ينشد أشعار الشوق.

وقام الشيخ أبو الوفا الشرقاوي بعد ذلك برحلة إلى الهند. وفي مسجد «لاهور» عاصمة «البنجاب» رأى نعلاً منسوباً للنبي ﷺ، فقال قصيدة في هذا الموقف، تعرف باسم «القصيدة الوفائية»، وقد شرحها الشيخ حسنين مخلوف مثلما شرح «المدحة النبوية».

* * *

ولنختتم وقفتنا مع الشيخ أبي الوفا، بتلك القصيدة التي ألّفها بالمدينة المنورة، وراعى فيها الأبجدية. . فبدأ كل بيت بحرف، على ترتيب حروف الهجاء. وهذه القصيدة تعد من الشعر الصوفي الخالص، فهي تصوِّر حال المحبين، وتصف خمر العشق الأزلي، وتترجم الأحوال:

[الوافر]

أَبَاحُوا الوصلَ واطَّرحوا اللِّثامَا ... وساقي الكاسِ دَارَ بها مُداما
بُرُوقُ جمالهم لمعتْ لعيني ... فأورثني تجلِّيها اصطلاما[1]
تبدَّى في مرايا القلبِ سِرٌّ ... لهُمْ عن غيرنا عَزَّ اكتتاما
ثَمِلْتُ براحةِ التقريبِ لكنْ ... كستني حُلَّةُ الصحو احتشاما
جَلَتْ أسرارهم عن عين قلبي ... حجابَ ظلامه فصَفَا وهاما
حَبَوْني وَصْلَهُمْ فسعدتُ حَظًّا ... كما أهوى وبُلِّغْتُ المَرَاما
خَفَضْتُ جناحَ نفسي فاطمأنت ... وكنتُ أُذيقها قَبْلُ الحِماما[2]
دنوتُ بها إلى حضرات قدسٍ ... يعزُّ سناؤها عن أن يراما
ذكت عَرْفاً[3] وطاب لنا شذاها ... وأَرْوى صِرْفُهَا مِنَّا الأُوَاما[4]
رَقَى لرفيعِ رُتبتها هُمَامٌ ... له في الصدق شأوٌ لا يسامى
زمام وجوده يُلقى إليهم ... ونارُ فؤاده تذكو ضراما
سَرَى عن جُملةِ الأغيار طُرّا[5] ... وفي سفحِ الحِمَى ضَرَبَ الخياما
شموس وِصَالِهِمْ في أُفْقِ سِرِّي ... بَدَتْ فَجَلَتْ عن الحُسْنِ الظلاما
صفت في الحانِ أدنان الندامى ... فَشِمْتُ رحيقَهَا بدراً تماما
ضَفَتْ خِلَعُ الرعايةِ من لَدُنْهِمْ ... على مَنْ جَدَّ في المسرى وقاما
طربتُ وأنعشتني ساجعاتٌ ... تُنَادِي مَنْ لرشفِ الكاس رَاما
ظَمِئْتُ وقد شربتُ بكُلِّ كاسٍ ... وهل تروي السُّلافَةُ مُسْتَهاما
على متن العنايةِ كان سيري ... إليهم جاعلاً عزمي حساما
غَضَضْتُ عن السوى طرفي فأمسى ... خُطُورُ سواهُمُ عندي حراما

---

(١) الاصطلام: نوع من الوله، قريب من الهيمان.
(٢) الحمام ـ بكسر الحاء ـ هو: الموت.
(٣) العَرف: الريح الطيب.
(٤) الأوام: العطش.
(٥) طرًّا: جميعاً.

فُيـوضُ عـطائهم تَنْهَـلُّ دَوْمـاً على مَنْ أَمَّهُمْ تهمي انسجـامـا
قُـطُوفُ الحضـرةِ العليـاءِ تـدنـو إليـه وقـد جَفَـا فيهـا المنـاما
كَسَتْـهُ ثـيـاب إجـلالٍ وعِـزٍّ ونـادتْ يـا حبيبي زِدْ هُـيـامـا
لَـوَى عن نَشْأتيـه عِنَانَ روحٍ إليهـا سـائـراً يَـرْعى الـذمـامـا
مُـدَامُ الـوصـل ريحـاني وروحي حَيِيتُ بـه ومِـتُّ بـه غَـرَامـا
نـداؤُهُمْ هُـدِيتُ بـه وكـانـت تحيَّتهـم لنـا: قِيـلاً سـلامـا
هـواتفُ حضرةِ المحبـوب تدعـو أحِبَّتَـهـا إلى مَـغْنـىً تـسـامى
وَلاءُ قـلوبـهِـمْ يـرقى إلـيـه بهِمْ وجِنَـانُـهُ حَسُنَتْ مقـامـا
لآلـي فَضْلِهِمْ نَـظَمَتْ عقـوداً لمن خَـطَبَ الدُّنُـوَّ لهم وسـامـا
يـروم مـتيَّـمُ الأحشـاءِ منـكـم كئـوسـاً مِسْكُهَـا يحلو ختـامـا

* * *

بخصوص ترجمة الشيخ وأشعاره. . انظر:

شـرح (مـدحـة نبـويـة ـ القصيـدة الـوفـائيـة) للشيـخ حسنين مخلوف، صفحـات ناصعـة من تاريـخ الإمامين، شمس التحقيق وعـروة أهل التـوفيق، أوراد السادة الخلوتية.

إبراهيم حلمي القادري

(المتوفى ١٣٩٠ هجرية)

دَهَـانِي العَذْلُ فِيكُمْ بِـآلدَّوَاهِي وَشَكْوَىٰ الحُبِّ مِنْ فَرْضِ الهُيَامِ

[الوافر]

منذ قرابة عشرين سنـة، وبالتحـديد ليلة السـابع والعشـرين من رمضان سنـة ١٣٩٠ هجريـة، وقف الشيخ إبـراهيم حلمي القادري يصلي بمـريـديـه صلاة التراويح. . وأطال الشيخ السجود، ومرَّ الوقت في خشوع رهيب. الكل ساجد، الوقت يمر، الشيخ على حاله. . تفقدوه، فإذا هو بجوار ربه.

وُلـد الشيخ إبـراهيم حلمي بـالإسكنـدريـة في ١٦ محـرم سنـة ١٣٢٢ هجرية، وتلقى أصول التصوف على يد والده محمـد حلمي (المتوفى ١٣٥٥ هجرية) وصار شيخاً للطريقة القادرية النيازية، التي اشتقت اسمها من الجمع بين اسمي (عبـد القادر الجيـلاني ـ عبـد الـرحمٰن نيـازي) والتي اتخـذت من جامع القادرية بالإسكندرية مقرًا لها.

ولا تزال الطريقـة القادريـة النيازيـة قائمـة إلى اليوم، على نفس النحـو الذي نظمه الشيخ في حياته. . ولا يزال تصوفهم كتصوفه، يغلب عليه الطابع العلمي الرصين، البعيد عن كل مظاهـر التخلف التي نجدهـا في العديـد من الطرق الصوفية المعاصرة في مصر وغيرها من البلدان. . ولن نتوقف هنا عنـد طبيعة تصوف القـادرية النيـازية، فقـد أفردنـا لذلـك الفصل الأخيـر من بحثنا المنشور (الطريق الصوفي وفروع القادرية بمصر) وهو البحث الذي كان أحـد

جزئيّ رسالتنا لنيل درجة الدكتوراه في الفلسفة الصوفية. لهذا سنكتفي هنا بالتوقف عند شخصية الشيخ إبراهيم حلمي، ونتعرف على شيء من شعره الصوفي.

جمعت شخصية الشيخ بين الفقيه والمربي والمحقِّق والصوفي الشاعر. ففي الفقه وفروعه، كان الشيخ على قدمٍ راسخة في شتى المذاهب، وهو في ما يظهر في ثنايا مؤلفاته التي سنذكرها في خاتمة تطوافنا معه.. وقد خصَّص الشيخ للفقه يوماً من أيام الأسبوع، تقوم فيه الطريقة بدراسة واحدٍ من كتب المتون الفقهية. وذلك بأن يقرأ أحد المريدين فقرة من الكتاب، ثم يقوم الشيخ بالشرح والتعليق واستعراض تلك المسائل الفقهية المتصلة بهذه الفقرة. ولا يزال هذا النظام متبعاً عند أتباعه إلى اليوم.. وهو نظام يذكرنا بما كان يُسمى في العصور الزاهرة للحضارة الإسلامية باسم مجالس التعليم. حيث انتشرت هذه المجالس في ربوع البلاد، وفي مختلف فروع المعرفة، مما جعل التواصل العلمي مستمرًّا عبر حلقات طويلة من الدرس القائم على العلاقة المباشرة بين الأستاذ والطلاب.

وكان الشيخ مربياً إسلاميّاً لمجموعة كبيرة من المريدين، كان يتَّبع معهم أصول التربية الإسلامية النقية من المفاهيم المغلوطة التي دسَّتها على برامجنا التربوية (فلسفات الغرب) التي لا تتفق مع طبيعة التكوين الثقافي والموروث الديني لدينا.. ولكن المقام هنا لا يتسع لعرض المنهج التربوي عند الشيخ، ولتحليل تلك المواقف التربوية التي يذكرها مريدوه. وذلك لأن ما يهمنا هنا، هو التعرُّف على الشيخ كشاعر صوفي.

لم يكن الشعر عند الشيخ مطلوباً لذاته، وإنما كان أداة تعبيرية تناسب الموضوعات الصوفية التي أراد التحدث فيها. وقد عبَّر الشيخ عن هذا المعنى في قطعة شعرية له، منها قوله:

[الرمل]

لستُ بـالشعـر وليعـاً إنمـا هزَّني الوجدان والدمع اصمأل(١)

وقد هزَّ الوجدان قلب الشيخ، فكتب مجموعـة كبيرة من القصـائد التي تعد أبياتها بالآلاف! ولم ينشغل الشعر عنـده بموضـوعات التصـوف فقط، بل كانت له إطلالات شعرية على العديد من القضايـا التي شغلت مصر ومـا تزال تشغلها. فمن ذلك قصيدته (الجهاد) التي يقول في بعض أبياتها: [الرمل]

هَـزَّتِ الـوجـدانُ قلبيَ فـابتهـلْ طـولَ لَيْلِي من ضِـرَامٍ ووَجَـلْ
وعيـوني يـا عيـوني ضـرَّهـا دمـعُ عيني وهـمـومٌ لـم تَـزَلْ
قـلَّ فـينـا مَـنْ إذا قـال فعـلْ ومنـاطُ الفـوزِ بـالحُسنى العَمَـلْ
يا شبابَ النيـل فاحمـوا عِرْضكم فـعـدوُّ الله لـلفـتـك اعْـتَـدَلْ
حـرِّضوا للحـرب واحيوا عهـدنـا لا يـطيق الـذلَّ إلاَّ مَنْ سَـفَـلْ
وابـذلوا الأرواح في حُبِّ الـوطن فـاهتمـامُ المـرءِ يسمـو مـا بَـذَلْ

ويعلق الشيـخ على البيت الأخيـر في هـامش النص المـطبـوع من القصيـدة، فيقول: «قـال عمر بن الخـطاب رضي الله عنه: لـولا حب الـوطن لخـرب بلد السـوء. وكـان يُقـال: بحب الأوطـان عمـرت البلدان. وقـال جالينوس: يتروح العليل بنسيم أرضه كما تتروح الأرض الجدبة بسيل المطر. وقال أبقراط: يُداوى كل عليل بعقاقير أرضه فـإن الطبيعـة تنزع إلى غـذائها. وقيل: احفظ أرضاً أرسخك رضاعهـا وأصلحك غـذاؤها وارع حمىً اكتنفـك فِنـاؤه. وقيل: من عـلامة الـرشد أن تكـون النفس إلى أوطانهـا مشتاقـة وإلى مولدها تواقـة».. والبيت الشعري والتعليق، يثيـران الانتباه إلى مـا تدعـو إليه

(١) إصمأل: اشتد.. ويُقال: اصمأل النبات، إذا التفَّ.

الطوائف والجماعات الإسلامية المخدوعة، التي تؤكد أن (حب مصر) يتعارض مع المفهوم الإسلامي الذي لا يعترف بالإقليميات! ومهما كانت الدوافع وراء تلك الدعوة ـ سواء بقصد أو دون قصد ـ فإنها لا تؤدي إلا لطمس معالم الشخصية المصرية لصالح غير المصريين.. عموماً، فهذه ليست قضيتنا هنا، فلنعد إلى ما نحن بصدده، ولنقرأ هذه الأبيات المتحسِّرة من إحدى قصائد الشيخ حيث يقول: [الوافر]

قِفا نبك جهابذةَ الأنامِ ... وعهداً قد تقضَّى في وئامِ
أيخفى ما أضرَّ من الغرامِ ... ودمعيَ لانصرام العهدِ دامِ
خيامٍ قد أراها كالخيامِ ... ولكنْ أين أعطار الأنامِ
وطرفيَ قد يسارع بالتفاتٍ ... ولكنْ لا أرى غير النعامِ
وصمتيَ عن عتاب الحرِّ جرمٌ ... وعُتبى للدَّنيِّ مِنَ الحرامِ
ولكن أين ذاكَ الحُرُّ يأوي ... وغايةُ أهلها جمعُ الحطامِ
وإن عَفَّ الخسيسُ فليس يرجو ... سوى التمهيد للعللِ الجسامِ
وتنتصرُ المهازلُ كلَّ يومٍ ... وأعلامٌ تُوارى في الرَّغامِ(١)
غريبُ الأهل والأوطان يبكي ... وحُقَّ بكاءُ طُلَّاب السلامِ
وفاضَ الوجدُ والتهيام عنِّي ... فَرِقُّوا جيرةَ البيتِ الحرامِ
وأضناني البعادُ وإنَّ يوماً ... ببُعد العينِ عنكم ألفُ عامِ
متى الأظعانُ تسعفُني وأُمسي ... على الأعتاب موفورَ الجمامِ
وأشكو للحبيب شتيتَ حالي ... وأحظى بالسلام من السلامِ

.. أما القصائد الصوفية الخالصة، فقد ترددتُ طويلاً في اختيار واحدة منها لتقديمها هنا. ثم وجدتُ نفسي تميل كثيراً لهذه القصيدة التي طالما

---

(١) الرغام: التراب.

قرأتها في مقام الشيخ، حيث كُتبت أبياتها بخط جميل على جدران المقام.

تقول القصيدة: [الكامل]

يا سيِّدي أنت الغياثُ ومَفْزَعي ... ولئنْ بدا للغير فهو تمنُّعي
لكم الولا ودخيلكمْ يشكو الضنا ... والعبدُ يُكرمُ بالولاء الأرفعِ
وبكم عُرفتُ ولي لديكم حُجَّةٌ ... تسمو على فلك الوجود الشُّرَّع
والشمس تعلمُ أنني معهودكمْ ... ولها علوت وكان أمر تطلُّعي
وبها فسال الدمع مني تمدُّه ... زفراتُ قلبيَ واصطلامُ الهُلَّع
وبها فأرَّجتُ العطورَ يبثُّها ... خيرُ الخلائق بالدعاء الأجْمَعِ
منها على الحالين كنتُ مناجياً ... أهل الهوى والساجدين الطُّوَّعِ
وعلى المعارج سيِّدي أرقيتني ... وخلوتُ بالبيت المَشِيدِ ولا دَعي
أقرأتني قِدماً كريمَ خطابِكمْ ... وبه انتشأت وكان أمنُ تضعضُعي(١)
بالنور أشرقت الحروفُ وكنتَ لي ... عيناً وقلباً واصطنعتَ مسامعي(٢)
وسقيتني كأساً فهِمْتُ مناجياً ... ونظمتُ أروع ما يكون وما معي(٣)
غذيتمو روحي وإنَّ فطيمكمْ ... حاشاه يسجد أو يقوم لمُمْتَعِ
فأنا الحسيبُ وحُسن ظنِّيَ غالبٌ ... ولديَّ من عهد الغرامِ اللُّمَّعِ
ما لوْ أُبحْ للَّيلِ بعضَ رُموزها ... سطعتْ بنار الوجد شمسُ تولُّعي
وعلى المُنيرةِ لو تلوتُ حروفها ... سجدتْ ولو كان النهارُ برابعِ
لكنَّه وهنتْ عظاميَ سيِّدي ... وانتابني قلقٌ وزاد تفجُّعي
كُلِّي لكمْ منكمْ بكمْ في عزِّكمْ ... يا ساكنينَ الدمع كَلَّتْ مَدْمعي
بين الجوانح والفؤاد تسعَّرتْ ... نارٌ ولكنْ من حشايا المُوجَعِ

---

(١) الإشارة إلى خطاب الله للأرواح قبل خلق الأجساد.

(٢) الإشارة إلى الحديث القدسي: ما زال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أُحبه، فإن أحببته كنت عينه التي يرى بها.. الخ (حديث مشهور).

(٣) الإشارة إلى أنه لم يكن معه من صناعة الشعر شيءٌ قبل ذلك.

بعدَ الرُّقي على الطِّباق وطوفتي ... بالبيت أخشى يا غِياثَ الفُزَّعِ
رفقاً بصَبٍّ[1] قد أناخ ببابكمْ ... والرفقُ من دأبِ الكرامِ الشُّفَّع
مَنْ للعواذل سيدي في محنتي ... وسواكمو أبداً فليس بنافعِ
عذلٌ وتبريحٌ وأنَّةُ مُوجَعٍ ... والصبر بعد بهائِهِ لمْ يلمعِ
مَنْ للنزيل إذا شكا مِنْ غُصَّةٍ ... إلَّا الذي مِنْ بِرِّهِ لمْ يُمنعِ
ألِفَ الدخيلُ مكارماً من عطفكمْ ... وبها فقد طابَ الشرابُ ومَرْتعي
والغيرُ[2] إنْ مرَّتْ عليَّ فخاطري ... تأبى الرفيعَ ببُهْرجٍ وبأَرْقَعِ
صورٌ وأشكالٌ ومتعةُ ناظرٍ ... والوهمُ يخدع بالسرابِ وبلقعِ
ليتَ الغطاء عَنِ العيون تكشَّفت ... فيبينُ ما أَلِفَتْ نفوسُ الطُّمَّعِ
زرعٌ بلا ثمرٍ وطيرٌ صامتٌ ... صَمَّاءُ عَنْ لحن الشَّجيِّ وسُجَّعِ
وعوازلُ الأحرارِ خلف زيوفها[3] ... كالنَّازِعات النَّاشِطات الهُزَّعِ
يا دولة العزِّ الهنيِّ السرمدي ... عزلُ العواذل لا يزالَ مُقطِّعي
فمتى أجرِّدُ سيفَ عَزْمِيَ[4] فاتكاً ... ويفوز حلمي[5] رغم أنف المُدَّعي
سُحِرَ الفؤاد بلطفكمْ وجمالكمْ ... ولغيركمْ قلبي وسمعيَ لم يَعِ
ما زلتُ أهتفُ والهيام ملازمي ... وعطاؤكمْ مهما يكن لم أقنعِ
لنْ أنتهي حتى يكون لوصلكم ... قبلي الوفاءُ لجُلَّسي والتُّبَّعِ[6]
فلقد سلوتُ ولستُ يوماً سالياً ... يا مَنْ بهمْ أبقى ويفنى مُرَوِّعي

---

(١) الصب: العاشق شديد العشق.
(٢) الغير: كل ما سوى الله.
(٣) زيوف: جمع زيف.
(٤) عزمي: كان الشيخ يُعرف في شبابه بلقب (إبراهيم عزمي).
(٥) حلمي: قد تكون من (الحلم) وقد تكون إشارة لاسمه (إبراهيم حلمي) ففي هذه اللفظة وسابقتها، جناسٌ تام.
(٦) يشير البيت إلى ما يُعرف في التصوف بعناية الشيخ بمريديه، وانتفاع المريدين ببركة شيخهم في حياته، وبعد وفاته أيضاً.

جئتُ الرحاب ونجدتي بولائكم … والعُرْفُ يقضي بالعطاءِ الأوسعِ
عارٌ إذا ما الغيرُ يُبدي مِنَّةً … وعليكمو حَبَسَ الرجاءُ تمتُّعي
خُلْفُ الوعيد فشأنكمْ يا سادتي … أما الوعودُ فأَجْزَلُ وبأَنْفَعِ
والعودُ يُحْمَدُ باللقاء ووصلِهِ … يا مَنْ بهمْ حسُنتْ عوائدُ مرجعي
يا آل يثربَ يا كرامَ عشيرتي … ماذا جرى لعهودكم وتضرُّعي
فبكمْ إلى المولى العزيز توسُّلي … وبكمْ على الأبواب رَنَّ توقُّعي
بكمُ التوسل في الشدائد والندى … منكم يُسابقُ كالسحاب السُّرَّعِ
زُفُّوا الأمان إلى الكئيب فإنه … خَضَبَ المشيبُ نواحه بالأَيْدَعِ (١)
قويَ الرجاءُ بكم وإن بَعُدَ المدى … فأراه يأتي بالنوالِ الأمتعِ
مِنَّاً على حرم الحبيب تحيةً … تزكو كما يزكو السجودُ لرُكَّعِ
ومُسَلِّماً برقيقةٍ تحدو بها … زمرُ الملائكِ والطيورِ السُّجَّعِ

* * *

بالإضافة إلى الفصل الأخير من كتابنا (الطريق الصوفي . .) يمكن الرجوع بصدد الشيخ إبراهيم حلمي القادري وتصوفه، إلى مؤلفاته الآتية:

مدارج الحقيقة في الرابطة عند أهل الطريقة (مطبوع بالإسكندرية) القرب في محبة العرب للعراقي، تحقيق (مطبوع) تكذيب المدعي بصحة رحلة الإمام الشافعي (مطبوع) الجهاد ومعاهد البر، قصيدتان (مطبوع) شرح تعليم المتعلم للزرنوجي (مخطوط بمكتبة مسجد القادرية النيازية) جلال الحق في كشف أحوال شرار الخلق (مخطوط) محو الشبهات في ثبوت المحو والإثبات (مخطوط) السير والسلوك (مخطوط) العدوى والوباء (مخطوط) الرسائل الصغرى (مخطوط) المنظومة القادرية، مجموعة أشعار . .

(١) الأيدع: نوع من الصبغة البيضاء، يستخدمه أهل اليمن.

خاتمة

كانت لنا عبر صفحات هذا الكتاب، رحلةٌ في عالم الشعر الصوفي المجهول. ولعلها تكون صحبةً طيبة، تلك التي تعرَّفنا فيها على حياة وشعر الشخصيات العشرة التي قدمها الكتاب، في محاولة لتضييق مساحة الإهمال الذي لقيه شعر الصوفية.. ذلك الشعر الذي قد نختلف حول قيمته الأدبية، لكننا نستشعر دوماً صدقه وحرارة عاطفته. فإذا كان البعض يقول (أجمل الشعر أكذبه) فإننا نقول (أطيب الكلام أصدقه) ولقد كان شعر الصوفية طيباً، لأنه كان ترجمةً صادقة لأحوالٍ معاشة بالفعل. فلم يقُلْه أصحابه تزويقاً للغةٍ، أو تكسُّباً لمالٍ، أو لنيل شهرة؛ وإنما غلب عليهم سكر المحبة فتغَنوا، واستبدَّ بهم الوجد فأنشدوا.

ولنا في خاتمة الرحلة وقفات، نتأمل فيها بعض النقاط التي طرحتها هذه الرحلة الذوقية.. فمن ذلك:

الوقفة الأولى:

(حول بدء الشعر الصوفي ومساره):

الملاحظ أن ظهور الشعر الصوفي في محيط الأدب العربي، كان معاصراً لظهور التصوف ذاته. فقد بدأ أوائل الصوفية حكاية مواجيدهم شعراً،

وكأنهم وجدوا الشعر ـ منذ اللحظة الأولى ـ أكثر مناسبة لبث حرِّ الوجد. . ولهذا يندر أن نجد صوفيّاً من الرواد، لم يقل الشعر.

ومع أن البعض يرجع بأصول التصوف إلى أيام الصحابة، بل إلى أيام النبوة؛ ويستدلون على ذلك بأحوال الرسول ﷺ، وبأخلاق رجال الصدر الأول للإسلام. إلا أن الأكثر شيوعاً بين الباحثين، هو أن البدايات الحقيقية للتصوف كنمطٍ متفرِّدٍ من التقرُّب إلى الله، كانت إبان القرنين الثاني والثالث الهجريين. وهما القرنان اللذان ظهر فيهما الشعر الصوفي، في شكل أبيات متناثرة منسوبة لهذا الصوفي أو ذاك. . وعلى هذا؛ فإن بدء الشعر الصوفي، هو بدء التصوف.

ثم تدفق تيار التصوف، متوازياً مع تيار الشعر. حتى إذا جاء القرن الهجري السادس؛ فإذا بالشعر دعامةٌ أساسية للتعبير الصوفي، وإذا بصوفيةٍ لم يخلفوا إلا الأشعار ـ كابن الفارض وغيره ـ وإذا بالقصائد المطولة التي تعدُّ أبياتها بالمئات، وإذا بكل المؤلفات الصوفية مملوءةٌ بالشعر.

وعلى هذا النحو، اتسع مجال الشعر الصوفي عند أهل الطريق، واتخذ في الآثار الصوفية مساراً متميِّزاً، ظل حتى اليوم متواجداً بقوة عند المعاصرين من الصوفية. . أولئك الذين اتخذنا الشيخ إبراهيم حلمي القادريّ مثالاً عليهم.

ونخلص من هذه النقطة إلى القول بالتلازم التام بين التجربة الصوفية وترجمتها الشعرية، بحيث لا ينفصل الشعر عن التصوف.

الوقفة الثانية:

(حول تطور أغراض الشعر الصوفي):

إذا نظرنا إلى أشعار سمنون المحب والروذباري، على أنهما يمثلان الشعر الصوفي في طوره المبكر، لوجدنا أغراض الشعر الصوفي وكأنها تنحصر في التعبير عن (المحبة) بمفهومها الصوفي، فلا تتعدى ذلك إلى أغراض أخرى.

ومع ذلك، فالمحبة عند الصوفية لا يجوز النظر إليها على أنها غرضٌ واحدٌ فحسب. فهي في التصوف تتسع، حتى تشمل العديد من الموضوعات المتعلقة بها، على نحو ما نرى في شعر سمنون من علاقة المحبة بالشوق.. والشوق عند الصوفية حالٌ رفيعٌ يعبرون به عن حسرة النفس الإنسانية لبقائها في سجن البدن، ومن ثم تشتاق إلى عالمها الرباني الأسنى الذي تتوق إليه، لتنعم بقرب المحبوب (الله).

كما نجد علاقةً بين المحبة والابتلاء.. فها هو سمنون يدعو في بعض أبياته، إلى المزيد من الابتلاءات (ضَاعِفْ عليَّ بجهدك البلوى) والبلاء في المحبة الصوفية أمرٌ مطلوب! فبه ترتفع الدرجات ويقترب الصوفي من مقامات أهل الكمال؛ كما ورد في الحديث الشريف: «أشدُّ الناس ابتلاءً الأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل». وبالابتلاء تخلص نفس المحب من الشواغل، فلا تلتفت إلا للمحبوب، الذي قد يبالغ في البلاء حتى يصل لحدِّ القطع؛ كما ورد في الحديث: «إن الله إذا أحبَّ عبداً ابتلاه، فإذا أحبَّه الحبَّ الجَمَّ قَطَعَهُ، فلم يبْق له مالٌ ولا ولد» وبالابتلاء يكون امتحان المُحبِّ، ولا شيء لدى المحبين أحلى من امتحانات الحبيب! فبها يؤكدون محبتهم؛ ومن هنا قال سمنون:

فـإذا بـلغتَ الـجهـدَ فـيَّ فـلم تتـرك لنفسك غـايـةً قصـوى
فـانـظرْ، فهـل حـالٌ بيَ انتقلت عمـا تُحـبُّ بحـالـةٍ أخـرى؟

كما نجد علاقة المحبة بالصدق، والصبر، والوصل، والـرضا. . وكلهـا من أحـوال الصوفيـة ومقامـاتهم التي سنراهـا بعد ذلـك مبسـوطـةً ومشـروحـةً بإسهابٍ في المؤلفات الصوفية التي عرضت لمراحل الطريق الصوفي، مثـل: قـوت القلوب في معـاملة المحبـوب للمكي، اللمـع في التصـوف للسـراج الطوسي، إحياء علوم الدين للإمام أبي حامد الغزالي، وغير ذلك.

هذا في شعر سمنون؛ وبالإضافة إليه، نجد في شعر الروذبـاري علاقـة المحبـة بالبكـاء. . فها هـو يشير في بعض أبيـاته، إلى أن روحـه بكت (حتى يُقال من البكاء تقطَّعتْ) وللبكاء عند الصوفية مفهوم ذوقي شديد الخصوصية، فهم يستنـدون للحديث: «ابكـوا، فإن لم تبكـوا، فتباكـوا» ليجعلوا من البكاء عـلامةً عن اشتـداد غمـة روح المحب في الـدنيـا، تلك الـدنيـا التي ورد في الحديث أنها: سجن المؤمن وجنة الكافر. ولهذا امتلأت كتب تاريخ التصوف بالحكايـات الدالـة على فرط بكـاء المحبين، بل إن هـذه الكتب تحدثنـا عن طائفة من أوائل الصوفية بالشام، كانوا يعرفون باسم البكَّائين.

وفي شعر الروذباري أيضاً، نجد علاقة المحبة بالفناء. . فهـو لا يعترف في شعره بمحبة (مَنْ لم يكن بك فانياً عن حُبِّه) ولهذا الفناء الـذي يشير إليـه الروذباري معنى دقيق. وذلك أن شرط المحبة الصوفية، فناءُ المُحبِّ عن كل تعلُّق قلبيّ بـأمور الـوجود، كي لا يشتغـل القلب بحبِّ الموجـودات، فينشغل عن حبِّ واجـد المـوجـودات. هـذا عن المحبـة والفنـاء كمـا عبَّـر عنهمـا الروذباري، أما في مرحلة تالية عليه، فسوف يشير الصوفية إلى معنى أكثر دقة ورهافة في العلاقة بين المحبة والفناء، فنراهم يقولـون بوجـوب فناء المحب، حتى عن محبته لله! وذلك حين يصل بالفناء لدرجةٍ، يفنى فيها عن نفسـه وعن

محبتـه، بحيث لا يبقى إلا المحبـوب المُــدْهِش للعقـول بــأنـوار تجليــاتـه المتواترة. فعند هذه الدهشة، يفنى المحبُّ عن كل ما سوى المحبوب.

كمـا نجد في أبيـات الروذبـاري علاقـة المحبة بـالعـديـد من الأحـوال والمقـامات الأخـرى. . فنراه في بيتٍ يصـل المحبة بـالوجـد، وفي بيت آخر يصلها بالشكر، وهكذا.

يتضـح مما سبق أن (المحبـة الصوفيـة) بعـلاقـاتهـا المختلفـة، كـانت الغرض الأول الذي دارت حوله أفلاك الشعر الصـوفي في مرحلتـه المبكرة. . فماذا عن المرحلة الـوسطى، التي امتـدت من القرن السـادس وحتى التاسـع الهجري؟

في هـذه المرحلة، تنـوعت أغراض الشعـر الصوفي تنـوعاً لا حـدَّ لـه. ويـرجع ذلـك في المقام الأول؛ إلى ثـراء التجربـة الصـوفيـة، واتسـاع رقعـة المعرفة الذوقية، وارتباط التصوف بالفلسفة وعلوم أخـرى. . فكان أن تفتحت آفاقٌ جديدة للتصوف، فجاء الشعر ليعبِّر عنها.

ولمـا كانت المعـرفة الصـوفية قـد استقلت في هذه المـرحلة، وتميزت بطابع خاصٍّ؛ فقد ظهر الرمز الصوفي بشكل بارز في أشعار القوم. وقد مرَّت بنـا خـلال أشعـار ابن خليفـة والششتـري وابن إسـرائيـل وابن الخيمي، تلك الرموز الصوفية المعبر عنها بـالخمر وسلمى وليلى ونجـد والديـر والرهبـان. . كما مرت بنـا (ذوات الخدود الشبيهـة بالشقـائق) اللاتي رمـز بهن نجم الدين كُبرى لتجليات النور الإلّهي.

ومن العسيـر علينا هنـا، أن نعدِّد أغـراض الشعر الصـوفي في المرحلة التي امتـدت من القرن السـادس إلى التـاسـع الهجـري؛ فـالمقـام يضيق عن ذلك. لذا، سوف نشير إلى هذه الأغراض العديدة إجمـالاً، فنقول: إنـه إلى

جانب المحبة، تناول الشعر الصوفي موضوعات: حقيقة الوجود ـ فيض التجليات الإلٓهية على قلب الصوفي ـ التوحيد الشهودي ـ ميثاق الله مع الأرواح قبل خلق الأجساد (عالم الذَّرِّ) ـ المقابلة بين الظاهر والباطن ـ أطوار المشاهدة ـ الوحدة . .

وبعد القرن العاشر الهجري، نضبت المعرفة الصوفية وتجمَّدت عند تراث السابقين، فبقي الشعر الصوفي في مرحلته المتأخرة، ينسج على أغراض المرحلة السابقة، دون ولوجٍ لآفاق جديدة. . وكادت لغته المتفجرة تهدأ، وأشجاره الوارفة تصفرُّ وتسَّاقط أوراقها. وعلى الحقيقة؛ فليس ذلك بالغريب، فمنذ القرن العاشر وحتى اليوم، وكل ما في هذه الأمة يهدأ، ويصفرُّ، وتسقط أوراقه.

الوقفة الثالثة:

(حول الشعر الصوفي الفارسي):

لم يقف التصوف في الإسلام عند حدود اللغة، بل حلَّقت التجربة الصوفية في آفاق العالم الإسلامي كله؛ ومن ثمَّ لم يقتصر تصويرها الشعري على اللغة العربية، وإنما حفلت الفارسية والتركية بروائع من الشعر الصوفي، لا يقل في روعته وبهائه عما كُتب بالعربية.

ولقد تعمَّدتُ في رحلتنا هذه، أن نحطَّ الرحال حيناً عند نجم الدين كُبرى، كي يشتمل الكتاب على واحدٍ من شعراء الصوفية الفرس، المجهولين أيضاً كالعرب. وقد اتضح للشعر الصوفي الفارسي مذاقٌ خاص، واكتسى في مجمله بطابعٍ قد يميزه عن شعر الصوفية العرب. فأول ما يبدو من ذلك، هذا اللون من الحكمة الرائقة التي تغلِّف الرباعية الأولى التي قدمناها من شعر نجم الدين، حيث يحكي عن الحكام في حال عزلهم وفي حال سلطتهم.

وهو ما نراه أيضاً في رباعيته الثانية التي أشار فيها لسلطان المال على نفوس بني البشر.

كما تميز الشعر الصوفي الفارسي بغلبة طابع القصِّ الشعري، ومع أن ذلك لم يتضح في النماذج القليلة التي قدمناها من شعر نجم الدين، إلا أنه واضح كل الوضوح في الآثار الشعرية لصوفية الفرس الكبار، من أمثال فريد الدين العطار وجلال الدين الرومي. وهذا القصُّ الشعري لا نقابله كثيراً عند الصوفية العرب، فقد تشتمل بعض قصائدهم على لقطات حوارية أو تراجم موجزة، لكنها في الغالب لا تحكي تلك الحكايات الطويلة التي نجدها في المثنوي ومنطق الطير وغيرهما.

ثم يشترك الشعر الصوفي الفارسي، مع نظيره العربي، في خصائص عديدة. فكلاهما يتأجَّج بالمحبة، ويتحرق بالعشق؛ وكلاهما يمتلىء صدقاً ويفيض عذوبة؛ وكلاهما يستخدم الرمز.. وإن كانت رموز الفرس من لونٍ خاص! فها هو نجم الدين كبرى يستخدم رموز: حسناوات شَجَلْ - حبة الشعير - شمر ويزيد.. الخ، وهي رموز لم يستخدمها شعراء الصوفية العرب. بل إن أشهر الرموز الشعرية في مثنوي جلال الدين الرومي (الناي) لا نجد له ذكراً في الأشعار العربية. وعلى أي الأحوال، فما دام المرموز إليه واحداً، فلكل قومٍ أن يختاروا ما يرمزون به.

ولما كنا في معرض الكلام عن الشعر الصوفي الفارسي، فلا بد من التعريف بأهم نصٍّ فيه.. بل أهم نصٍّ في الشعر الصوفي على الإطلاق، فارسيّاً كان أو غير فارسي، ذلك هو: المثنوي.

ترك جلال الدين الرومي، المتوفى ٦٧٢ هجرية، تراثاً شعرياً يقدَّر بنحو سبعين ألف بيت. منها ديوانه (المثنوي) الذي يقع في ستة مجلدات، تضمُّ

قرابة خمسة وعشرين ألف بيت، مع مقدمة قصيرة كتبها جلال الدين باللغة العربية! منها قوله: هذا كتاب المثنوي، وهو أصول أصول أصول الدين، في كشف أسرار الوصول واليقين، وهو فقه الله الأكبر.. الخ.

ويبدو المثنوي كما لو كان بحراً زاخراً بالمعاني والإشارات والحكايات الرمزية. ولا أعرف السر في أنه يذكرني دوماً بالفتوحات المكية لابن عربي؟ ربما لأن كليهما هائل الحجم عميق الأثر، أو لأنهما يبحران في أقصى محيطات المعرفة والذوق، أو لأنهما من تلك الأعمال التي لا تتكرَّر.. عموماً، فثمة رابطة ما بينهما.

وكان الدكتور محمد عبد السلام كفافي قد قام بترجمة مجلدين من المثنوي إلى العربية، ثم بقيت الأربعة الباقية بوفاته دون ترجمة؛ مما حجب عن المكتبة العربية أثراً من أهم آثار الأدب العالمي. لكنني علمت مؤخراً أن الدكتور إبراهيم الدسوقي شتا، يقوم الآن بترجمة بقية الديوان.. وإننا نتوق إلى رؤية هذا العمل الشعري، في ترجمةٍ كاملة إلى العربية، فهو يتيح إطلالة لا مثيل لها على تراث الفرس، الصوفي والأدبي في آنٍ واحد.

الوقفة الرابعة:

(الشعر الصوفي في الدراسات المعاصرة):

سبق لنا الإشارة ـ في عدة مناسبات ـ إلى أن الشعر الصوفي، لم ينل بعد ما هو جدير به من اهتمام الدارسين، سواء في ميدان الدراسات الصوفية، أو في حقل البحوث اللغوية. وذلك على الرغم من أهميته في كلا التخصصين، ومكانته التي لا يمكن التجاوز عنها في كليهما.

ولا تزيد الدراسات الجادة في مجال الشعر الصوفي، فيما أعلم، عن عدد أصابع اليد الواحدة. وعند مطالعتنا لهذه الدراسات، تتضح سمةٌ معينةٌ

فيها، تكاد تكون الغالبة. . وهي أن الدراسات المعاصرة قد صرفت عنايتها لبحث الشعر الصوفي في طوره المبكر، فراحت تحلّل أشعار الأوائل من أمثال: رابعة العدوية ـ ذو النون المصري ـ الحلاج ـ الشبلي. . وغيرهم من الصوفية الذين عاشوا قبل القرن الخامس الهجري.

واستناداً إلى ما ذكرناه من أن الشعر الصوفي في طوره المبكر، لم يكن متنوع الأغراض على نحوٍ يستوعب الأفكار الصوفية في مراحل تطورها المختلفة. فإن العكوف على شعر الطور الأول، لن يفي بفهم جوانب التجربة الصوفية الثرية، التي عاشها صوفية القرن الثامن الهجري مثلاً. . فهؤلاء الصوفية لا توجد عندهم إلى اليوم، دراسةٌ واحدةٌ تتناول شعرهم بالبحث والتحليل؛ مع أن القرن الثامن، حفل بمن لا حصر لهم من الصوفية الذين تركوا تراثاً شعريّاً ضخماً.

وأصحاب الدرس اللغوي، والبحث التصوفي، يتعللون في عدم إقبالهم على الشعر الصوفي بأمرين: الأول، أن هذا الشعر مملوءٌ بالرموز والكنايات، بحيث يصعب على الباحث استكناه مقصده ومراده الحقيقي. والأمر الآخر، أن معظم هذا الشعر لا يزال بعدُ مخطوطاً، ولم ينشر منه إلا القليل.

وعلى طريق تذليل هذه الصعوبات الحائلة دون الاهتمام بالشعر الصوفي، نشير فيما يخصُّ الأمر الأول، إلى أن هناك قدراً كبيراً من المؤلفات التي تشرح غوامض المصطلح الصوفي وتحدِّد مدلولاته. فمن ذلك: التعرُّف لمذهب أهل التصوف ـ الرسالة القشيرية ـ عوارف المعارف ـ اصطلاح الصوفية لابن عربي ـ اصطلاحات الصوفية للقاشاني. . وغير ذلك الكثير. وبذلك، فإن فضَّ غلالة الرمزية الصوفية، عملٌ ليس بالعسير، خصوصاً إذا تم العكوف على المصطلح وتذوقه من قبل الدارس.

وفيما يخص الأمر الآخر، أعني بقاء معظم الشعر الصوفي مخطوطاً. فقد أشغلت نفسي بتذليل هذه الصعوبة، لينفسح طريق البحث في الشعر الصوفي؛ فقمتُ بتحقيق قدرٍ من الشعر الصوفي، ولا زلت أعمل في تحقيق قدرٍ آخر. فكان مما انتهيت من تحقيقه: قصيدة النادرات العينية (٥٣٩ بيتاً) مع شرح النابلسي ـ ديوان عبد القادر الجيلاني ـ ديوان عفيف الدين التلمساني (جزءان).. وأعمل اليوم على تحقيق ديوان عبد الكريم الجيلي كاملاً، ومن بعده ديوان عبد الهادي السُّوديّ اليمنيّ الذي قدمنا منه بعض الفقرات الشعرية بهذا الكتاب الذي بين أيدينا.

وإنني أرجو أن يسهم ذلك، في الاهتمام بالتراث الشعري الصوفي، وفي وضع مادة البحث فيه أمام الباحثين، وفي مزيد من التعرُّف العام على هذا اللون من الأدب العربي المجهول.

والله الموفق.

المصادر والمراجع

١ - **إبراهيم حلمي القادري**: مدارج الحقيقة في الرابطة عند أهل الطريقة (نشرة عادل البهي - الإسكندرية ١٣٨١ هجرية).

٢ - **إبراهيم حلمي القادري**: تكذيب المدّعي بصحة رحلة الإمام الشافعي (نشرة عادل البهي - الإسكندرية، بدون تاريخ).

٣ - **إبراهيم حلمي القادري**: قصيدة الجهاد (مطبعة الكوثر - الإسكندرية، بدون تاريخ).

٤ - **إبراهيم حلمي القادري**: شرح تعليم المتعلم للزرنوجي (مخطوط بمكتبة القادرية النيازية - الإسكندرية).

٥ - **إبراهيم حلمي القادري**: جلال الحق في معرفة أحوال شرار الخلق (مخطوط بمكتبة القادرية النيازية).

٦ - **إبراهيم حلمي القادري**: المنظومة القادرية المباركة (مخطوط بمكتبة القادرية النيازية).

٧ - **ابن أبي زرع**: روض القرطاس (طبعة فاس - المغرب).

٨ - **ابن أبي أُصيبعة**: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق: نزار رضا (منشورات مكتبة الحياة - بيروت).

٩ - **ابن إياس**: بدائع الزهور في وقائع الدهور (طبعة بولاق ١٨٩٤ م).

١٠ ـ **ابن الجوزي (أبو الفرج)**: صفة الصفوة (طبعة القاهرة ـ بدون تاريخ).
١١ ـ **ابن الجوزي (أبو الفرج)**: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (طبعة حيدر آباد الدكن، دائرة المعارف العثمانية ـ الهند ١٣٥٨ هجرية).
١٢ ـ **ابن حجر العسقلاني**: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة (طبعة حيدر آباد الدكن، دائرة المعارف العثمانية ـ الهند ١٣٥٠ هجرية).
١٣ ـ **ابن خلكان**: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان (طبعة القاهرة ١٢٧٥ هجرية).
١٤ ـ **ابن تغري بردي**: النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة (دار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٣٥٧ هجرية).
١٥ ـ **ابن الزيات**: التشوف لمذهب أهل التصوف (طبعة فاس ـ المغرب).
١٦ ـ **ابن شاكر الكتبي**: فوات الوفيات (مكتبة النهضة ـ القاهرة)..
١٧ ـ **ابن عبَّاد الرندي**: الرسائل الكبرى (طبعة فاس ـ المغرب ١٣٢٠ هجرية).
١٨ ـ **ابن عجيبة الحسني**: إيقاظ الهمم بشرح الحكم (طبعة القاهرة ١٣٣١ هجرية).
١٩ ـ **ابن العماد الحنبلي**: شذرات الذهب في أخبار من ذهب (مكتبة القدس ١٣٥٠ هجرية).
٢٠ ـ **ابن عربي (محيي الدين)**: الفتوحات المكية (دار الكتب العربية ـ القاهرة) بتحقيق د. عثمان يحيى (الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة).
٢١ ـ **ابن كثير**: البداية والنهاية (مطبعة السعادة ـ القاهرة ـ بدون تاريخ).

٢٢ ـ **ابن منظور**: لسان العرب، تصنيف: يوسف خياط (دار لسان العرب ـ بيروت).

٢٣ ـ **أبو ريان (محمد علي)**: أصول الفلسفة الإشراقية عند شهاب الدين السهروردي (دار النهضة العربية ـ بيروت، الطبعة الثانية).

٢٤ ـ **أبو نعيم الأصبهاني**: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (دار الكتاب العربي ـ بيروت، الطبعة الرابعة).

٢٥ ـ **بدوي (عبد الرحمٰن)**: أبو مدين وابن عربي (مقالة بالكتاب التذكاري لابن عربي ـ القاهرة ١٩٧٩).

٢٦ ـ **البغدادي (إسماعيل)**: هدية العارفين (ملحق بكتاب: كشف الظنون ـ بيروت).

٢٧ ـ **التفتازاني (أبو الوفا)**: ابن سبعين وفلسفته الصوفية (دار الكتاب اللبناني ـ بيروت ١٩٧٣).

٢٨ ـ **التنبكتي**: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، بهامش: الديباج لابن فرحون (طبعة القاهرة ١٣٢٩ هجرية).

٢٩ ـ **الذهبي (شمس الدين)**: سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرين (مؤسسة الرسالة ـ بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠١ هجرية).

٣٠ ـ **الخوانساري**: روضات الجنات في أخبار العلماء السادات، تحقيق: أسد الله إسماعيليان (طهران ١٣٩٢ هجرية).

٣١ ـ **خليفة (حاجي)**: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (طبعة در سعادت ـ الهند، بدون تاريخ).

٣٢ ـ **السبكي (تاج الدين)**: طبقات الشافعية الكبرى (طبعة القاهرة، بدون تاريخ).

٣٣ ـ السراج الطوسي: اللمع في التصوف، تحقيق: د. عبد الحليم محمود، طه عبد الباقي سرور (دار الكتب الحديثة ـ القاهرة ١٩٦٠).
٣٤ ـ السلمي (أبو عبد الرحمٰن): طبقات الصوفية بعناية: أحمد الشرباصي (كتاب الشعب ـ القاهرة ١٣٨٠ هجرية).
٣٥ ـ سليمان العطار: الشعر الصوفي في الأندلس (دار المعارف ـ القاهرة، الطبعة الأولى).
٣٦ ـ السودي اليمني: الديوان (مخطوط بمكتبة بلدية الإسكندرية).
٣٧ ـ السخاوي: الضوء اللامع بأعيان القرن التاسع (طبعة بيروت).
٣٨ ـ السيوطي (جلال الدين): حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة (طبعة بولاق).
٣٩ ـ الشرجي: طبقات الخواص أهل الصدق والإخلاص (القاهرة ـ بدون تاريخ).
٤٠ ـ الششتري (أبو الحسن): الديوان، تحقيق: د. علي سامي النشار (منشأة المعارف ـ الإسكندرية ١٩٦٠).
٤١ ـ الشهرزوري (شمس الدين): نزهة الأرواح وروضة الأفراح = تواريخ الحكماء، تحقيق د. عبد الكريم أبو شويرب (الجمعية العالمية لنشر الدعوة الإسلامية ـ ليبيا، تونس ١٩٨٩).
٤٢ ـ الشرقاوي (أحمد): شمس التحقيق وعروة أهل التوثيق (القاهرة ـ بدون تاريخ).
٤٣ ـ الصفدي: الوافي بالوفيات (طبعة مصر).
٤٤ ـ عبد الحليم محمود: أبو مدين الغوث (دار المعارف ـ مصر، الطبعة الثانية).

٤٥ ـ **العراقي (المحدِّث)**: القرب في محبة العرب، تحقيق: الشيخ إبراهيم حلمي القادري (نشرة عادل البهي ـ الإسكندرية ١٣٨٠ هجرية).
٤٦ ـ **العيدروس (عبد القادر)**: تاريخ النور السافر عن أخبار القرن العاشر (اليمن ـ بدون تاريخ).
٤٧ ـ **الغبريني**: عنوان الدراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية (طبعة الجزائر ١٣٢٨ هجرية).
٤٨ ـ **القشيري**: الرسالة القشيرية في التصوف (طبعة البابي الحلبي ـ القاهرة، ١٣٧٩ هجرية).
٤٩ ـ **الكلاباذي (أبو بكر)**: التعرف لمذهب أهل التصوف، تحقيق: محمود النواوي (مكتبة الكليات الأزهرية ـ القاهرة، الطبعة الثانية).
٥٠ ـ **كرنكوف**: مقالة «اليافعي» بدائرة المعارف الإسلامية.
٥١ ـ **كوربان (هنري)**: شهاب الدين السهروردي (ترجمة: د. عبد الرحمٰن بدوي، شخصيات قلقة في الإسلام ـ وكالة المطبوعات، الكويت ـ دار القلم، بيروت).
٥٢ ـ **كحالة (عمر رضا)**: معجم المؤلفين (طبعة بيروت).
٥٣ ـ **مخلوف (حسنين)**: مدحة نبوية (طبعة على نفقة المؤلف، القاهرة ـ بدون تاريخ).
٥٤ ـ **مخلوف (حسنين)**: القصيدة الوفائية (طبعة على نفقة المؤلف، القاهرة ـ بدون تاريخ).
٥٥ ـ **مخلوف (حسنين)**: أوراد السادة الخلوتية (طبعة على نفقة المؤلف ـ بدون تاريخ).
٥٦ ـ **مخلوف (حسنين)**: صفحات ناصعة من حياة الإمامين أحمد بن شرقاوي، أحمد أبو الوفا الشرقاوي (طبعة على نفقة المؤلف ـ بدون تاريخ).

٥٧ ـ **المقري**: نفح الطيب (طبعة القاهرة ١٣٥٧ هجرية).

٥٨ ـ **المناوي (عبد الرؤوف)**: الكواكب الدرية في تراجم الصوفية (مخطوط بدار الكتب المصرية).

٥٩ ـ **ميرزا علي مدرس**: ريحانة الأدب في ترجمة المعروفين بالكنية واللقب (تبريز ـ إيران).

٦٠ ـ **النابلسي (عبد الغني)**: رد المفتري عن الطعن في الششتري، مخطوط القاهرة ٣٦٢/ تصوف ـ الإسكندرية ٥٠٣/ تصوف).

٦١ ـ المعارف الغيبية في شرح قصيدة النادرات العينية للجيلي، مخطوط (عدة نسخ بدار الكتب المصرية).

٦٢ ـ **اليافعي (ابن أسعد)**: نشر المحاسن الغالية في فضل المشايخ الصوفية أصحاب المقامات العالية (طبعة البابي الحلبي ـ القاهرة ١٣٨١ هجرية).

٦٣ ـ **ياقوت الحموي**: معجم البلدان (دار صادر ـ بيروت).

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

كتب الدكتور يوسف زيدان

١ـ المقدمة في التصوف، لأبي عبد الرحمٰن السُّلَمي (تقديم وتحقيق).
• مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٩٨٧.
٢. عبد الكريم الجيلي فيلسوف الصوفية (تأليف).
• الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٨ـ طبعة أولى.
• دار الجيل، بيروت، ١٩٩٢ـ طبعة ثانية.
٣ـ قصيدة النادرات العينية للجيلي، مع شرح النابلسي (تقديم وتحقيق).
• دار الجيل، بيروت ١٩٨٨.
٤ـ الفكر الصوفي عند عبد الكريم الجيلي (تأليف).
• دار النهضة العربية، بيروت ١٩٨٨ـ طبعة أولى.
• مكتبة مدبولي، القاهرة ١٩٩٢ـ طبعة ثانية.
٥. - شرح فصول أبقراط، لابن النفيس (دراسة - تحقيق).
• دار العلوم العربية، بيروت ١٩٨٨، طبعة أولى.
• الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ١٩٩٠ـ طبعة ثانية.
٦ـ ديوان عبد القادر الجيلاني (دراسة - تحقيق).
• مؤسسة أخبار اليوم، القاهرة ١٩٩٠.
٧ـ ديوان عفيف الدين التلمساني (دراسة - تحقيق).
• مؤسسة أخبار اليوم، القاهرة ١٩٩٠.
٨ـ شعراء الصوفية المجهولون (تأليف).
• مؤسسة أخبار اليوم، القاهرة ١٩٩١ـ طبعة أولى

٩ـ الطريق الصوفي، وفروع القادرية بمصر (تأليف).
• دار الجيل، بيروت ١٩٩١.
١٠ـ عبد القادر الجيلاني، باز الله الأشهب (تأليف).
• دار الجيل، بيروت ١٩٩١.
١١ـ رسالة الأعضاء، لابن النفيس (دراسة - تحقيق).
• الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ١٩٩١.
١٢ـ المختصر في علم الحديث النبوي، لابن النفيس (دراسة - تحقيق).
• الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ١٩٩١.
١٣ـ المختار من الأغذية، لابن النفيس (دراسة - تحقيق).
• الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ١٩٩٢.
١٤ـ شرح مشكلات الفتوحات المكية، للجيلي (دراسة - تحقيق).
• مؤسسة سعاد الصباح، القاهرة ١٩٩٢.

تحت الطبع:

- الكهف والرقيم، للجيلي (تحقيق).
- شخصية الخضر في التراث الإسلامي (تأليف).
- دراسات صوفية (تأليف).
- التراث في الأدب المصري المعاصر (تأليف).
- الوريقات في المنطق، لابن النفيس (تحقيق).
- شرح كليات القانون، لابن النفيس (تحقيق).